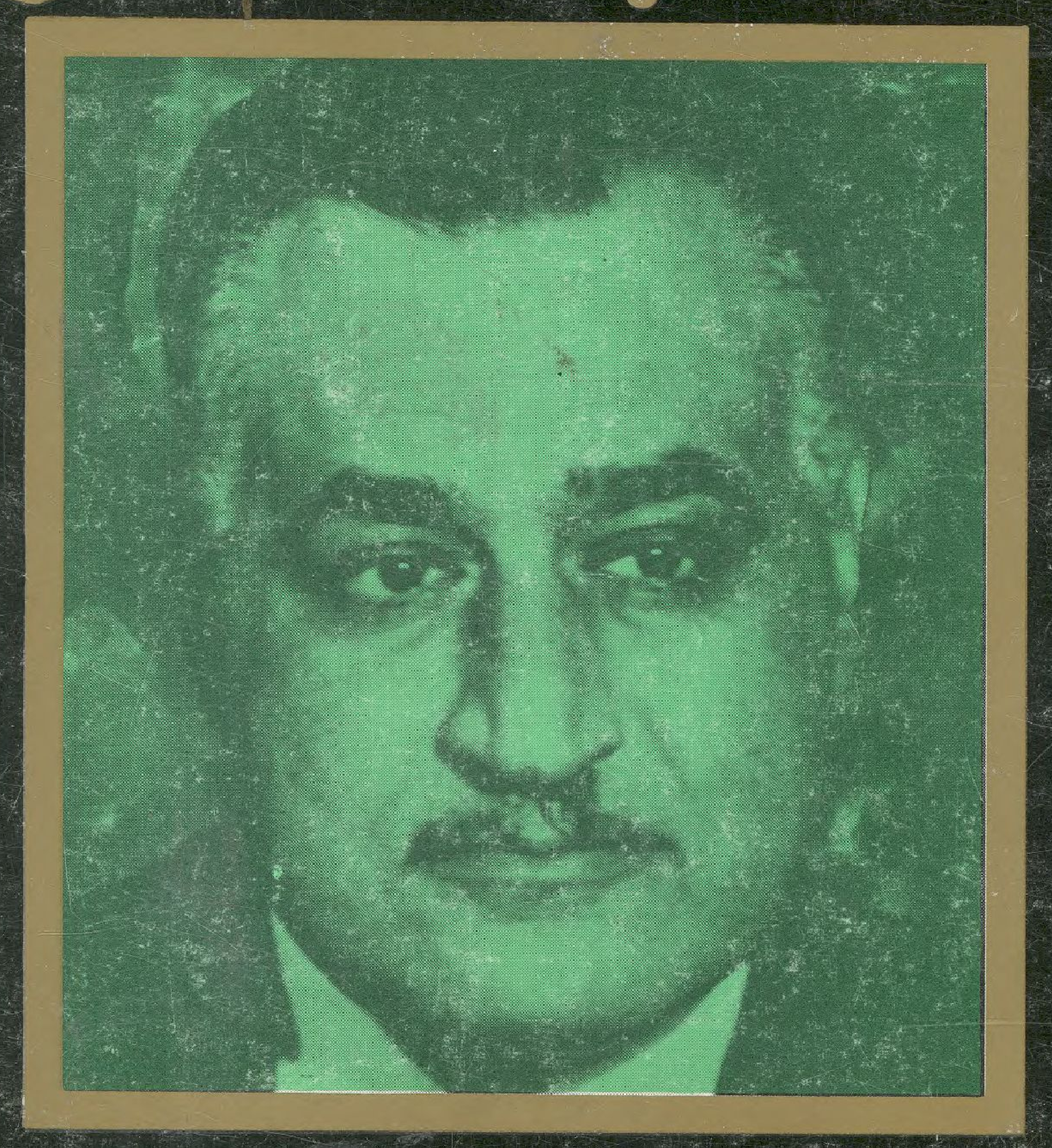
محمد حسنين هيكل

لمصر... لا لعبد الناصر



بصراحـــة

يكتبها : محمد حسنين هيكـــل

لمصر .. لا لعبـــد الناصر

الحملة ضد جمال عبد الناصر ما وراءها ؟ .. ومن وراءها ؟

مقدمة

ليست هذه الاحاديث محاولة للدفاع عن جمال عبد الناصر وشخصيته وعصره ، ولكنها رواية مختصرة لمشاهد رأيتها بعيني . ولقد اخترت وقائع تتصل ببعض ما يثار اليوم فى الحملة ضد جمال عبد الناصر ، ولم يكن هدفى ان ارد او ادافع او اسجل للتاريخ ، فذلك كله لم بجيء آوانه بعد . وانما كان هدفى أن يعرف الشعب فى مصر ، وتعرف شعوب الامة العربية ، ان الحقيقة ليست ما يدعى به اليوم فيما ينشر ويقال فى القاهرة .

واعرف مقدما ان هذه الاحاديث لن تصل الى القارىء المصري ، وذلك يحزنني ، ولكنه أمر لا حيلة لي ازاءه ، وان لم يكن فيه ما يدعوني الى قبول دور الشيطـــان الاخرس الساكت عن الحق .

واعرف مقدما ايضا ان هذه الاحاديث سوف تثير علي ما انا في غنى عنه ، وسوف أهاجم بسببها دون فرصة لحق الدفاع عن النفس ، وسوف ينسب الي ما لم اقله ، واتهم بما لم اقترفه ، ومع ذلك فاني اقبل راضيا وسعيداً ، عارفا ان كل واحد منا يملك اختيار مواقفه ولكن من منا يملك اختيار مقاديره ؟!

محمد حسنين هيكل
القاهرة ــ فبراير ١٩٧٦

الحديث الاول

منذ عدت الى الكتابة المنتظمة ــ مرة كل شهر ــ خارج مصر ، حاولت قدر ما استطيع ان اتجنب التعرض للسياسات والمواقف المصرية . ولم اقترب من هـــذه السياسات والمواقف الا عند الضرورة القصوى ، وفى حرص شديد يزن كل كلمة ويدقق فى كل اشارة بما فى ذلك النقط وعلامات التعجب والاستفهام !

والسبب ــ وهناك غيره اسباب اخرى ــ ان الكتابة عن مصر خارج مصر وبقلم مصري لا تزال مسألة حساسة يمكن تأويلها بأدعاء الاساءة الى الوطن خـــارج حدوده . ومع ان هذا الادعاء باطل لانه ينكمش بالحدود الحقيقية للوطن العربي الواحد الى الحدود الضيقة لدولة واحدة من دوله ــ الا ان هذا الادعاء ما زال قابلا للاستغلال. لا ن النزعات الاقليمية ما زالت مؤثرة من ناحية ، ومن ناحية اخرى لاننا فى داخل الوطن العربي لم نتعود بعد اسلوب الحوار . . . حوارنا حملات كراهية وحروب بالكلمات . وليس هناك ضمان لاي صاحب رأى بيديه ــ بكل الموضوعية ــ ان يجد رايه فى النهاية ذخيرة لمدافع لم يصنع لها فى حملات الكراهية وحروب الكلمات !

ثم انني ــ ومنذ البداية ــ حاولت قدر ما أستطيع ان اتجنب الكتابة عن جمال عبد الناصر وحياته الحافلة وتجربته الكبيرة ، ولم اقترب من الحديث عنه الا عند الضرورة القصوى .

فعلت ذلك مرة فى اعقاب رحيله مباشرة . ونشرت مقالا فى ذكرى الاربعين على رحيله بعنوان « عبد الناصر ليس أسطورة » أبديت فيها خشيتي من استغلال المستغلين ــ لا غراضهم ــ لقصة البطل فيه والرمز ، وعبرت عن مخاوفى من تحويل تراثه الـــى كهنوت غيبى جامد : بينما هو فى الحقيقة تجربة انسانية زاخرة قابلة للحياة والنمـــو والتطـــور .

ثم فعلت ذلك اخيرا ، وقبل عدة شهور ، فى ذكرى مرور ٢٣ سنة على ثورة ٢٣ يوليو ، وكانت الحملات ضده فى مصر قد تصاعدت ، وأردت فقط ان انبه الـــى مقاصدها والى مصادرها . ولعلي لم اتجاوز كثيرا حين نسبتها الى مخططات قـــوى السيطرة العالمية بشكل عام ، والى وكالة المخابرات المركزية الامريكية بشكل خاص . ولم يكن ذلك تخمينا أو رجما بالغيب ، وانما كان استنادا الى حقائق معروفة أكدتها ملفات هذه الوكالة التي كانت مفتوحة لمن يقرأ ويفهم ويستوعب خلال السنتـــين الاخيرتين . وكان ذلك بفضل لجنة التحقيق الخاصة التي اشرف عليها السناتـــور

تشرش عضو مجلس الشيوخ الامريكي وقد شكلت لبحث تجاوزات وجرائم هذه الوكالة التي كان الزعيم الهندي جواهر لال نهرو يشير اليها دائما بقوله « انها القوة الشريرة الملعونة فى زماننا المعاصر » . ولم تكن الملفات قد فتحت بعد ، ولم يكن قد ثبت يقينا ان هذه الوكالة كانت حربا لا هوادة فيها ضد زعماء الثورة الوطنية المعادية للاستعمار وقيادات التقدم فى العالم الثالث عموما : بعضهم حاولت اغتياله ماديا وبعضهم حاولت اغتياله معنويا ، ونجحت فى مرات ولم تنجح فى مرات أخرى :

● حاولت هذه الوكالة ونجحت فى الاغتيال المادي ــ بالقتل ــ بالنسبة « لالليندي » فى « شيلي » و « لومومبا » فى « الكونجو » ــ وحاولت هذه الوكالة ولم تنجح فى الاغتيال المادي ــ بالقتل ــ بالنسبة « لكاسترو » فى « كوبا » و « مكاريوس » فى « قبرص » .

● وحاولت هذه الوكالة ونجحت فى الاغتيال المعنوي ــ بالتشويه ــ بالنسبة « لسوكارنو » فى « أندونيسيا » و « نكروما » فى « غانا » ــ وحاولت هذه الوكالة ولم تنجح فى الاغتيال المعنوي ــ بالتشويه ــ بالنسبة « لشوين لاي » فى « الصين » و « انديرا غاندي » فى « الهند » .

قلت ذلك فى يوليو الماضي ــ فى مناسبة مرور ٢٣ سنة على ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ــ واضفت اليه ان ما نشهده « الآن » هو محاولة فى الاغتيال المعنوي لجمال عبد الناصر ، بعد محاولات متكررة ــ لم تنجح ــ فى اغتياله ماديا بالقتل منذ ظهوره وبروزه على مسرح السياسة العربية والعالمية كواحد من أكبر زعماء حركة الثورة الوطنية .
قلت ذلك وقتها واكتفيت !

***

وكثيرا ما سئلت . حتى من قبل ان تبدأ الحملة على جمال عبد الناصر وتتصاعد : لماذا لا اكتب قصته وقد كنت من أقرب الناس فكرا اليه ؟ ــ وكان ردي دائما :

ــ ما زال الوقت مبكرا بعد ، وما زالت رؤيتي مشوبة بالعاطفة .. واريد ان انتظر سنوات لكي استطيع ان اقدم شهادة متكاملة للتاريخ » .

وعندما بدأت الحملة وتصاعدت ضد جمال عبد الناصر كان السؤال الملح هو :

ــ اذا لم تكتب الآن فمتى تكتب ؟ والى متى والسنة السوء وحدها مطلقة العنان ؟
وكان ردي دائما :

ــ اذا اردت أن اكتب فلا ينبغي ان يكون ما اكتبه فى مجال الدفاع عن جمال عبد الناصر ، فهو لا يحتاج مني ــ او من غيري الى دفاع عنه ، ثم انني أريد ، اذا كتبت ،

ان أضع أمام الناس صورة متكاملة للتجربة كلها : الضوء والظل ، النجاح والفشل ، الاصيل والدخيل فى كل ما جرى وكان .وخشيتي من الكتابة الآن ان القوى الظاهرة على السطح هي قوى الثورة المضادة ، ومع ايماني بان اي تقييم نزيه لتجربة عبد الناصر سوف يعطيه اكبر كثيرا مما يأخذ منه ـ فان قوى الثورة المضادة الظاهرة على السطح الان تستطيع التركيز على الجوانب السلبية لكـــي تضرب بها الجوانب الايجابيـة الضخمة ، ومن ثم تطمس بذلك وجه الحق فى التجربة كلها ، وتصبح شهادة التاريخ مطية للاحقاد واداة من أدوات المخطط المرسوم ـ بصرف النظر عن نوايـــا الشهود وحسن قصدهم ! » .

وعندما استبيح التاريخ . وخرج من النسيان عشرات من رواة الحكايات عـن مصر عبد الناصر ـ سمعت كثيرين يسألونني :

ـ كل هؤلاء تكلموا ، وبعضهم دعم روايته بثقة شاهد العيان ، وانت متى تتكلم ؟»

ـ وكان ردي دائما :

ـ دعوا الكلام لمن يريد الكلام ..

ولو اصغينا جيدا لوجدنا المتكلمين يروون فى الواقع عن أنفسهم وليس عن عبد الناصر .. بعضهم يبحث لنفسه عن تاريخ فى الماضي وبعضهم يبحث عن دور فى الحاضر .

ثم ان الروايات كلها قادمة من النسيان ، والى النسيان تذهب .

الاختلاق واضح فى كثير منها ، حتى ان بعض الذين قابلوا جمال عبد الناصر لدقائق ينسبون اليه ـ بخيالهم ـ أحاديث تستغرق اياما بعد ايام .

والروايات معظمها مختلط متضارب .

بل اكثر من ذلك ، فلو صدق الناس كل ما يروى لكان تصديقهم شهادة لجمال عبد الناصر وليس شهادة عليه ، فاذا كانت كل هذه الروايات تمثل « عقول » هـؤلاء جميعا ـ اذن فلقد كان الرجل فعلا معجزة زمانه ... اذ كيف تسنى له ان يحقق كل ما حقق ومثل هؤلاء جميعا من حوله ؟!

لم يكونوا معه فى ايجابياته كلها وبشهاداتهم .

ولم يتجاسروا جميعا على سلبياته حتى جاء الموت ومنحهم الحريـة ، وهذا شيء سيىء واسوا منه انهم ظلوا من ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ الـــى بداية سنة ١٩٧٤ يتمسحون بذكرى الراحل والرحيل كأنهم لا يصدقون المقادر ... ثم بعد أربع سنوات كاملة اطمانوا فيها الى ان الجسد المكفن بالثوب الابيض لن يخرج من قبره ـ فتحـوا افواههم وتكلموا ! » .

وتجاوز الكلام كل حد معقول ، وكان آخره اتهام جمال عبد الناصر بأنه اختلس لنفسه وهرب الى الخارج لحسابه مبلغ خمسة عشر مليونا من الدولارات : خمسة منها قدمها الملك سعود تبرعا للمجهود الحربي المصري ، والعشرة الباقية قدمها الملك سعود أيضا قرضا لمصر ، ولكن جمال عبد الناصر اغتصب هذا كله لمنفعته الشخصية واودع الاموال فى حساب باسمه فى الخارج .. هكذا !

اكثر من ذلك فان جمال عبد الناصر اقدم على هذا التصرف فى وقت محنة عربية كبرى ، وهي تلك الايام السوداء من يونيو سنة ١٩٦٧ .. هكذا ايضا !

ومع ان هذه القذيفة من السموم طاشت واخطأت هدفها ووقعت على الارض وانكشفت شحنتها السوداء — الا ان المسألة ما زالت تحتاج الى كثير من التأمل والتفكير ، ثم انها تثير عديداً من الاسئلة الحائرة :

● ماذا اذا لم يكن ثلاثة من ابرز شخصيات مصر ، عاصروا موضوع تبرع الملك سعود بخمسة ملايين دولار واقراضه لمصر عشرة ملايين أخرى ، وقد عاشوا التفصيلات كلها ما زالوا قادرين على الكلام ، وهم يعرفون ان هذه المبالغ جاءت فى النور ووضعت فى البنود التي كانت مرصودة لها : وضع مبلغ التبرعات فى حساب خاص بالتبرعات فى بنك مصر مفتوح باسم رئيس الجمهورية وانتقل من جمال عبد الناصر الى أنور السادات حين ولي المنصب — ثم ان مبلغ القرض جرى تحصيله باسم البنك المركزي المصري ودخل فى حساباته ، والثلاثة هم : حسن عباس زكي وعبد العزيز حجازي وهما وزيران سابقان للاقتصاد والخزانة واحمد زندو المحافظ الحالي للبنك المركزي ؟

● ماذا لو لم تكن الوثائق فى متناول يد احمد زندو محافظ البنك المركزي ، وكان الرجل يملك الشجاعة الكافية ليتقدم رغم الجو الخانق ويقول بامانة :

— حرام هذا الذي يفترى به .. وهذه هي الوثائق تنطق بالحقيقة !؟ »

● ماذا اذا لم يشعر رجل مثل ممدوح سالم بحسه ومسؤوليته ان اخفاء الحقيقة أو تمويهها يمكن ان يؤدي الى عواقب خطيرة داخل البلد تؤثر فى امنه ؟

● ماذا اذا لم يكن هذا كله ؟

وهل كان الاتهام يظل معلقا على سمعة عبد الناصر ؟

وما هو الهدف ؟ ولحساب من ؟

***

كأن المصادفات ارادت ان تجيب بالصدق على هذه الاسئلة الاخيرة . لماذا ؟ وما هو الهدف ؟ ولحساب من ؟

في نفس الاسبوع الذي ثارت فيه هذه الزوبعة المثقلة بالسموم ضد جمال عبد الناصر — حملت وكالات الانباء العالمية قصتين اخباريتين مصدرهما واشنطن :

... القصة الاخبارية الاولى كتبها « دونالد روثبرج » احد مراسلي وكالة « الاسوشيتدبرس » في العاصمة الامريكية ونصها كما يلي :

اعلن « جون ماركس » احد مؤلفي كتاب « عبادة المخابرات » ان وكالة المخابرات المركزية الامريكية حاولت ثلاث مرات في أواخر الخمسينات اغتيال جمال عبد الناصر .

وقد رتبت المخابرات الامريكية فعلا ثلاث فرق للاغتيال تقوم بهذه المهمة ، ولكنها لم تنجح فقد قبض على احداها ، وعجزت الاخرى عن تنفيذ المهمة ، كما ان الثالثة وهي مكونة من عرب في خدمة المخابرات الامريكية لم تبلغ عما حدث لها بعد ان وصلت فعلا الى مصر .

وقال « جون ماركس » ان التخطيط لمحاولات اغتيال جمال عبد الناصر بدأ في اجتماع لمجلس الامن القومي الامريكي كان يحضره « جون فوستر دالاس » وزير الخارجية الامريكية الاسبق ، وكان يحضره أيضا شقيقه « الان دالاس » الذي كان في ذلك الوقت يشغل منصب مدير وكالة المخابرات المركزية الامريكية .

وحدث أن عرض في هذا الاجتماع تقرير عن الاضرار التي تسببتها سياسات جمال عبد الناصر لمصالح الولايات المتحدة في المنطقة ، وقال جون فوستر دالاس :

— الا تستطيع المخابرات « تصفية » هذه المشكلة ؟ »

واعتبر آلان دالاس أن هذه العبارة تكليف رسمي بتصفية جمال عبد الناصر ، وبدأ الترتيب لاغتياله .

هذا ما نقلته وكالة « الاسوشيتدبرس » على لسان « جون ماركس » .

ولكي يوضع هذا الكلام في حجمه الحقيقي فلا بد أن نتذكر أن « جون ماركس » بدأ حياته دبلوماسيا في وزارة الخارجية الامريكية ، ثم عمل في سكرتارية « اللجنة الخاصة للتنسيق المشترك » بين وزارة الخارجية الامريكية ووكالة المخابرات المركزية ، وهي اللجنة التي تعرض وتناقش وتقر فيها كل جوانب النشاط الخفي للولايات المتحدة في المجال الخارجي — ثم انتقل بعد ذلك الى خدمة المخابرات ، وكلف بمهام في « فيتنام » في اطار « مشروع التهدئة » الذي كان يتولاه في ذلك الوقت « ويليام كولبى » مدير وكالة المخابرات المركزية الامريكية فيما بعد ، وحتى شهر واحد مضي ، و « مشروع التهدئة » في فيتنام — لمجرد التذكرة ايضا — هو المشروع الذي جرت بمقتضاه تصفية كل الزعماء الحاليين والمحتملين في الريف الفيتنامي ، وبشهادة « كولبى » نفسه فان جهاز « التهدئة » باشرافه تمكن من اغتيال قرابة خمسة وعشرين الف شخص في « فيتنام الجنوبية » على مدى أربع سنوات مارس فيها نشاطه !

وفى « فيتنام » بدأ ضمير « جون ماركس » يتحرك رغم نصائح قدمها اليه كثيرون من زملائه ، ملخصها على حد تعبيره هو « لا تكن مثاليا وعليك ان تعيش الدنيا كما هي فى الواقع » لكن ضمير « جون ماركس » تمرد فى النهاية ، فاذا هو يستقيل من الوكالة . واذا هو يتفق مع زميل له هو « فيكتور مارشيتي » على فضح اسرار المخابرات الامريكية فى كتابهما الذي اشتهر فيما بعد وهو « عبادة المخابرات » ... وربما تبرز اهمية هذا الكتاب وخطورة ما فيه من معلومات اذا تذكرنا انه كان الكتاب الوحيد الذيخضع لرقابة صحفية بحكم محكمة فيدرالية فى الولايات المتحدة الامريكية . فلقد رفعت ادارة المخابرات المركزية قضية على المؤلفين تتهمهما فيها بأنهما اخلا « بتعهد السرية » الذي وقعه كل منهما اثناء عمله فى خدمة الوكالة وافشيا اسرارا كثيرة يمكن ان تضر بأمن الولايات المتحدة فى كتابهما . وبالفعل فان المحكمة بناء على ما طلبته وكالة المخابرات المركزية الامريكية أمرت بحذف ٣٣٩ فقرة من كتابهما . ولقد قرر المؤلفان ان يتركا الفقرات المحذوفة بيضاء فى كتابهما ، ولعله الكتاب الوحيد الذي صدر على هذا النحو أخيرا فى العالم كله ، ويلحظ قارئه ان معظم الاجزاء المحذوفة تتصل موضوعاتها بنشاط وكالة المخابرات المركزية الامريكية فى الشرق الاوسط .

هكذا اذن وبشهادة خبير عارف بما يقول ... حاولوا تصفية جمال عبد الناصر كانسان باغتياله ... تماما كما فعلوا مع مع « سلفادور الليندي » فى « شيلي » ومع « باتريس لومومبا » فى الكونجو .

***

... نجيء الى القصة الاخبارية الثانية وهي تتعلق بتقرير رسمي اذيع من واشنطن عن تحقيقات لجنة السناتور تشرش فى نشاط وجرائم وكالة المخابرات المركزية الامريكية ، وكانت جريدة « نيويورك تيمس » بين الوسائل الصحفية التي نقلت كثيرا من تفاصيله .

يتحدث التقرير فى جزء منه عن الاساليب التي اتخذتها وكالة المخابرات المركزية الامريكية فى مجال توجيه الراي العام فى العالم منذ بدأت نشاطها اثناء الحرب العالمية الثانية تحت اسم « وكالة الخدمات الخاصة » ، ثم تحولت بعد ذلك بقانون اصدره الرئيس الاسبق هاري ترومان الى « وكالة المخابرات المركزية الامريكية » .

ويرسم التقرير صورة عجيبة لنواحي النشاط التي لجأت اليها المخابرات المركزية الامريكية فى مجالات الصحافة والنشر والاعلام بصفة عامة لكي تضمن تحقيق أغراضها :

● من ذلك مثلا ان الوكالة انشأت من وراء الستار دورا صحفية فى عديد من بلدان العالم الثالث ، وكان تمويل هذه الدور كله من مصادر الوكالة . كما ان هناك دورا أخرى ساعدت الوكالة على انشائها ولم تطلب من أصحابها شيئا محددا بالذات ، ولكن مجرد ربط مصالحهم بالوكالة حقق « تكييف » اتجاهاتهم مع اغراض هذه الوكالة ،

على حد نص تعبير التقرير .

● وانشأت الوكالة او ساعدت على انشاء وكالات انباء وصور نشطت وراء جمع الاخبار والصور بطريقة عادية ، ولكنها التوت قليلا بالنشر بما يكفل اعطاء انطباعات معينة تريدها الوكالة : او تلاعبت بنقط التركيز فيما تنشره وتوزعه لكي تؤكد هذه الانطباعات .

● وانشأت الوكالة قسما خاصا لتزييف الكتب ، ويشير التقرير الى ان الكتاب الذي روجت له الدعايات قبل سنوات تحت عنوان « أوراق بنكوفسكي » والذي قيل في ذلك الوقت انه اعترافات جاسوس للاتحاد السوفيتي يكشف فيها اسرار ودخائل النظام السوفيتي — انما هو في واقع الامر من صنع وكالة المخابرات المركزية الامريكية وتأليفها .

● ثم انشأت الوكالة قسما خاصا للتشويه الاخباري MISINFORMATION كانت مهمته صنع قصص اخبارية تخترع بالتلفيق حكايات يكون من شأن اذاعتها تشويه حقائق معينة أو تشويه سمعة اشخاص بعينهم يتصدون للسياسة الامريكية أو يعارضون مقاصدها .

ويتعرض التقرير بالتفصيل للاساليب التي تستعملها اجهزة المخابرات الامريكية في عمليات التشويه عن طريق زرع الاخبار والقصص بحيث يبدو مظهرها بريئا يساعد اكثر على تحقيق ما هو مقصود منها ، ويضرب التقرير مثالا من ذلك فيقول ان المخابرات تنجح في ان تدس خبرا صغيرا ملغوما على جريدة غير مشهورة في بانكوك — عاصمة تايلاند — ثم تلفت اليه بطريق غير مباشر انظار جريدة اخرى اكثر منها شهرة في هونج كونج ، ومن هونج كونج يعثر مندوب لاحدى وكالات الانباء العالمية على الخبر فيضعه على اسلاك وكالته ويكتسب من اسمها قوة تصديق ينسى الناس معها بدايته المتواضعة في بانكوك ، وهكذا يلف الدنيا ويصبح على كل لسان منسوبا الى وكالة الانباء العالمية . ويلفت النظر انه عند التعرض لمناقشة هذا الجزء من التقرير امام لجنة مجلس الشيوخ الامريكي ان بعض أعضائها اثاروا نقطة فرعية : ان مثل هذه الاخبار المزروعة والملغومة بقصد التشويش او بقصد التشويه سوف تصل الى الولايات المتحدة والى شعبها ضمن رحلتها البرقية عبر الكرة الارضية .. وهذا معناه ان المخابرات الامريكية لا تضلل الرأي العام العالمي فحسب وانما هي تضلل الرأي العام الامريكي الذي تصل « مصنوعات » المخابرات الامريكية اليه ضمن من تصل اليهم في بقية ارجاء العالم ، واعترف « كولبى » مدير المخابرات الامريكية حتى شهر مضى **ان هذا الاحتمال — احتمال تضليل الراي الامريكي ذاته — احتمال وارد ولكن المخابرات الامريكية تحاذر قدر الامكان « وتجتهد ان تقلل تاثير مثل ذلك على الراي العام الامريكي » .**

● واشار التقرير ايضا الى ان المخابرات الامريكية زودت بعض السياسيين في العالم بمعلومات وحكايات ووثائق تخدم اغراضها ، وبعض هؤلاء السياسيين لم يكونوا يعرفون المصدر الحقيقي الذي جاءتهم منه هذه المعلومات والحكايات والوثائق ،

فقد كانت فى الغالب تصلهم عن طريق مصدر تبدو براءته وتحاط عملية تسليمهم مـــا يتسلمونه بأجواء مسرحية تقنعهم ان ما حصلوا عليه اسرار بعيدة المنال على غيرهم ، ويراعى أن يكون ما يتسلمه هؤلاء السياسيون متفقا مع اهوائهم ومشاربهم بحيث تصبح شهوة اذاعته ــ حتى قبل التحقق منه ــ حارقة غير قادرة على الانتظار . وعلى فرض ان المعلومات والحكايات والوثائق ظهر كذبها وادعاؤها فان بعض الطنين يبقى فى الاذان » .

***

وأعود الى الحرب المستمرة على جمال عبد الناصر :

● حاولوا قتله وقتل سياساته ماديا ، وحاولوا ثلاث مرات يعترف بها جـــون ماركس فى شهادته ، ومن يعرف كم من المحاولات جرت ولم يعرفها « جون ماركس » ولم يعترف بهـــا ؟

● ويحاولون الآن اغتيال ذكراه وتاريخه معنويا وبالتشويه والتشويش ، ورغم مضي قرابة ست سنوات على الرحيل فان الحرب الشاملة ضده تزداد حدة وتتصاعد مع كل يـــوم .

الحديث الثاني

لست في صدد الدفاع عن جمال عبد الناصر ، فالرجل بما اعطته له جماهير هذه الامة ، وبمكانته — لا زالت — من تقديرها ، في غنى عن دفاعي او دفاع غيري عنه ، ولعلي لا أتجاوز اذا قلت انني واحدمن الذين لا يعطون لاحد شرف تبرئته قبل أن يعطوا لاحد حـق اتهامه !

وبالتالي فانني لست هنا بصدد تفنيد حكاية الخمسة عشر مليونا من الدولارات التي تبرع بها الملك سعود او اقرضها لمصر ولمجهودها الحربي سنة ١٩٦٧ — والتي قيل ادعاء وافتراء ان جمال عبد الناصر اخذها لنفسه ووضعها في حساب لـه فـي الخـــارج ...

ومهما يكن فلقد تكفلت لجنة التحقيق الخاصة التي شكلت تحت ضـــغط شعبي مخيف في مصر باظهار وجه الحقيقة ، وابرزت من وثائق الدولة الرسمية ومؤسساتها المصرفية ما اثبت بغير شك ولا لبس أن تبرع الملك سعود بخمسة ملايين دولار ظـل موجوداً في حساب التبرعات الذي يشرف رئيس الجمهورية على توجيه صرفها ، وأن الحساب كله انتقل من اشراف جمال عبد الناصر بوصفه رئيسا للجمهورية الى اشراف أنور السادات حينما ولي المسئولية بعده ، ثم أن الملايين العشرة من الدولارات التي قدمها الملك قرضا لمصر في ذلك الوقت ، جرى توقيع الاتفاق بشأنها وجرى التصرف فيها بواسطة وزارة الاقتصاد والتجارة الخارجية ووزارة الخزانة والبنك المركزي المصري، وانها دخلت ميزانية الدولة وتحركت في كل مراحلها من القبض الى الصرف في اطـار مطالب الدولة وبواسطة اجهزتها الرسمية المتخصصة .

ومع ذلك فان الموضوع ما زال يغريني بمناقشته ، ولكن من زاوية اخرى ...

الزاوية « البوليسية » في القصة — اذا جاز ذلك التعبير — تكفلت بهـا لجنـة التحقيق الخاصة وجلت من تفاصيلها ما كانت حملة التشويه تحاول طمسه .

والزاوية التي تغريني — كما قلت — هي الزاوية الاجتماعية .. أقصد سلوك عبد الناصر او سلوك اي انسان غيره على ضوء مجموعة القيم التي آمن بها ، والتـي طبعت نمط حياته ، واتجاهات سياساته وتصرفاته اليومية .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا : هل كانت الثروة أو كان الغنى بين مجموعـة القيم الاجتماعية التي آمن بها جمال عبد الناصر ؟ ومن هذا السؤال تبرز اسئلة فرعية عديـــدة :

●● لمن انحاز جمال عبد الناصر اجتماعيا ... هل كان انحيازه للاغنياء أو كان انحيازه للفقــــراء ؟..

ان اعدى اعداء جمال عبد الناصر لا يكفون عن اتهامه بالحقد علــى الاغنيــاء ، ويعزون كثيرا من سيأساته الى هذا الحقد الذي يتصورونه .

ولم يكن جمال عبد الناصر حاقدا ، ولكنه كان يرى الغنى الفاحش في وســـط الفقر المدقع جريمة لا تغتفر ، وجعل هدفه الذي لا يحيــد عنه تذويب الفوارق بــين الطبقات ، ولو انه وجد نفسه من الاغنياء — او اوجدته مطامعه بينهــم — لاختلفت تصرفاته ، ذلك ان كــل انسان حريص على مصالح الطبقة التي ينتمي اليها ، او حتى تلك التي يتطلع يوما للانتماء اليهــا .

اي ان الذي يريد الثروة لنفسه يؤمن الثروة لغيره !

والذي يسعى الى توسيع ملكيته الخاصة — وذلك اساس اي غنى — لا يسمح لنفســه أن يبتدع مبدأ التعرض للملكية الخاصة أو المساس بحقوقها .

واذا كان جمال عبد الناصر قد تعرض لاموال الاغنياء لصالح الفقراء ، واذا كان قد تعرض لملكية من يملكون لصالح الذين لا يملكون — اذن فاننا نستطيع أن نتصــور ببساطة ان جمع الثروة والحرص على الملكية التي تتراكم فيها الثروة ، لم يكونا بــين مجموعة القيم الاجتماعية التي آمن بها في حياته أو لحياته .

ولقد كان بين المعايير الصارمة التي الزم نفسه بها ان لا يملك ارضا او عقارا، وكان يعتقد — واعتقاده صحيح — ان الملكية هي التجسيد العملي للامتياز الطبقي ، ولم يكن ضد الملكية كمبدا ولكنه كان ضد تجاوز الحدود فيها في مجتمع اغلبيته الســاحقة من المعدمين ، وكان رايه ان الحاكم في مصر لا يجوز له أن يتملك لانــه بذلك يفقــد قدرته على التعبير عن مصالح الاغلبية ويجد نفسه — مها حسنت نواياه — يعبر عــن مصالــح الاقليــــة .

●● هل كان نمط حياته يزيد عن موارده وهل كان مضطرا الى ان يجاري مستويات من المعيشة يراها من حوله مترفة ناعمة ، ومجاراته لها تفرض عليه أن يبحث لنفسه عن مصادر أخرى لتمويل العجــز ؟

لم تكن للرجل — وهذه حقيقة عرفها كل الذين خالطوه في مصر او في العالم العربي او في الدنيا الواسعة كلها — شهوة فيطعام او شراب .

وكان افخر الطعام عنده على حد تعبيره « لحما وارزا وخضارا » و « ماذا ياكــل الناس غير ذلك ؟ » وكان ذلك تساؤله مشوبا بالدهشة والاستغراب حينما كنت اقول لــه في بعض المرات مداعبا « ان الدنيا تقدمت ومع التقدم تطور المطبخ ولــم يعــد الطعام وسيلة للشــبع ولكنــه اصبح فنا من فنون الحياة » ، وكان ذلك في رايه تجديفا يكاد أن يقترب من الكفر بنعمة الله !

وكان نهاره وليله عملا متواصلا ، وكانت لمسة الترف في نهاره حينما يجلس للعمل في مكتبه تسجيلا لاغنية من اغاني ام كلثوم يدور وراء خافتا في خلفية جو عمله ، وكانت لمسة الترف في الليل ذهابه الى قاعة السينما في بيته يشاهد فيلما او فيلمين قبــل ان ياوي الى فراشــه .

وكانت مقاطعته للحياة الاجتماعية في القاهرة مشهورة ، وأتذكر انني ناقشته في عزلته كثيرا وكان رده :

ـ الى اين اذهب ؟ ومع من اختلط ؟ ان الذين يستطيعون دعـوة رئيس الجمهورية هم القادرون ... وهم يعرفون وانا اعرف ان افكاري تختلف عن افكارهم ، فلماذا اعذبهم واعذب نفسـي ؟! » .

●● هل كان يريد ثروة يؤمن بها شيخوخته ؟

الغريب ان جمال عبد الناصر كان يعرف انهلن يعيش طويلا ، ولربما من هـذه النقطة يستطيع عدد من الباحثين ان يعثروا على السبب الحقيقي الذي دفع جمال عبد الناصر الى محاولة تحقيق اكثر الكثير من المنجزات في اقل القليل من فسحة الزمن .

واتذكر اول مرة سمعته فيها يعبر عن هذا الشعور .

كنت اقول له ونحن نعيش ازمة من الازمات الكبرى التي كان يعبرها واحدة بعد واحـدة :

ـ هل ستتاح لنا الفرصة يوما لكي نجلسونكتب معا قصة ما حدث وحقيقته ... ربما عندما نصل الى سن الشيخوخة ولا تعود هناك مهام او مشاكل تتاح لنـا هـذه الفرصـة .

نجلس معا لنكتب القصة كلهـا » .

وقال هو ببساطة :

ـ سوف تكتبها وحدك ... فما أظن ان العمر سيصل بي الى مرحلـة الشيخوخة ! »

وقلت لـه :

ـ لماذا تقول ذلك ؟ . »

وكان رده :

ـ لنكن عمليين ... الذي يعيش نوع الحياة التي اعيشها ليس له ان ينتظـر الشيخوخة والا كان « يخرف » !

●● هل كان يريد ثروة يؤمن بها حياة أولاده بعد حياته ؟

كان ذلك امرا لم يخطر على بال عبد الناصر ... بل العكس ، ذلك انه كان يعتقد اعتقادا جازما لم يخالجه فيه شك أن أسرته لن تحتاج شيئا من بعده ، وأذكر ـ والله شاهد ـ مـرة تحدثنا فيها عنأولاده ومستقبلهم وكان قوله « انني اعرف الناس في بلدنا واعرف طيبة قلوبهم ، واعرف انهم بعدي سوف يضعون اولادي في عيونهم » .

وعندما رحل جمال عبد الناصر كان كل ما تركه من حطام الدنيا قرابة أربعة الاف جنيه ، الف وخمسمائة منها قيمة بوليصة تأمين على حياته عقدها قبل ذهابه الى حرب فلسطين ، ثم حسابا في بنك مصر باسمه شخصيا كان رصيده حوالي الفين واربعمائة جنيه ، وفي مقابل ذلك كان مدينا بحوالي ستة وعشرين الف جنيه بقيت عليه من تكاليف بناء بيتين ... بيت لكل واحدة من بناته تسكن فيه عند زواجها ، وكانت تلك مسألة تردد فيها طويلا ثم اقدم عليها أخيرا مدفوعا بعاطفة غلابة لا ترد فقد كان يحس بتقصيره في الوقت الذي يعطيه لاسرته وكان يريدهم احيانا أن يعرفوا أن انشغاله عنهم خارج ارادته وان عليهم مثله ان يتقبلوا مقاديرهم .

واريد هنا أن امس نقطة بالغة الاهمية ، تلك هي ان اسرة عبد الناصر ـ بناته وابناؤه بالذات ـ يمكن أن يحسبوا عليه حتى مساء يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، واما بعد ذلك فحساب كل واحد منهم على نفسه .

ويوم رحل جمال عبد الناصر كانت ابنته الكبرى هدى تعمل في سكرتاريته بمرتب قدره ستة وثلاثون جنيها ، وكان قرينها حاتم صادق يعمل معي في مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام بمرتب قدره مائة جنيه ، وكان قبل ذلك في سكرتارية رئاسة الجمهورية .

وكانت ابنته الثانية منى تعمل معي ايضا في دار المعارف المملوكة للاهرام بمرتب قدره ثلاثون جنيها ، وكان زوجها اشرف مروان يعمل في سكرتارية الرئيس للمعلومات موظفا في الدرجة السادسة بمرتب قدره اثنان وثلاثون جنيها في الشهر .

وقد يسأل سائل : لماذا كان عملهم معه ... أو معي ؟ .

واسمح لنفسي أن اشرح السبب لاول مرة .

حينما تخرجت ابنته هدى وتخرج معها في نفس السنة قرينها حاتم صادق من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة كان جمال عبد الناصر في حيرة شديدة واتذكره يومها يقول لي :

ـ لا اعرف ماذا يفعل حاتم وهدى ، لا بد لهما بالطبع ان يعملا ، ولا استطيع ان اكلم وزيرا او رئيس مؤسسة لكي يلحقهما بعمل عنده ... ولو تركتهما للظروف الطبيعية فاني اعلم ان كثيرين سوف يتسابقون عليهما وهذه مفسدة لهما في هذا السن ».

وسألني بطريقة عابرة :

ـ هل تستطيع ان تاخذهما معك في الاهرام ... معك استطيع ان اتكلم بغير حرج وعندك اعرف انهما لن يجاملا ، فانك بصداقتك لي لست في حاجة الى استغلالهما زلفي أو تقربا . »

وقلت له :

ـ انني اعرف الاثنين ... وبالفعل اريدهما معي في مركز للدراسات السياسية والاستراتيجية اقوم بتاسيسه الان » .

وبعد يومين اثنين من هذا الحديث ، قال لي وبطريقة عابرة وسط حديث طويل

علـــى التليفـــون :

ـــ لا تفكر في موضوع حاتم وهدى ... لقد وجدت الاسلم ان اعينهما هنا فـــي الرئاسة حيث أستطيع ان أضمن ظروف العمل بما لا يفتح مجالا لاي استغلال » .

ومضت شهور ... ومضت سنة ... ومضت سنتان وجاءني حاتم صادق يوما وقد سمع عن خطط وخطوات انشاء مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ورغب ان يعمل فيه « لانه يشعر أنه في سكرتارية رئاسة الجمهورية لا يجد فرصة كافية لكي يتعلم ويجرب . ويخوض خبرة الحياة » .

وتحدثت في الامـــر مع جمال عبد الناصر في مرة من المرات ، وكان تعليقه :

انني اعرف أن ظروف عمله هنا في الرئاسة لا تعطيه الفرصة لاظهار طاقته على العمل ، واذا اردته معك فليكن ، ولكن تعرف كيف افكر في الموضوع » .

وحين تخرجت « منى » من الجامعة الامريكية ـــ وكانت قد دخلتها لانها لم تحصل على مجموع كاف يؤهلها لدخول الجامعة المصرية ـــ وجدت جمال عبد الناصر يطلبني على التليفون ليقول لي ذات صباح وهو يضحك :

ـــ يظهر انني سأقدم لك طلب استخدام لكي تأخذ « منى » في اي عمل معك .

والتحقت منى بقسم نشر كتب الاطفال في دار المعارف .

وبعد الرحيل عرض الرئيس انور السادات على « هدى » أن تواصل عملها معه في سكرتارية رئيس الجمهورية كما كانت مع ابيها ، ولكنها استأذنته أن يسمح لهـــا بالعمل في الاهرام ، فبقاؤها في الرئاسة اكثر مما تستطيع تحمله عاطفيا ، وأنن فـــان اقرب شيء الى الالتزام بمعايير ابيها هو ان تعمل معي ، وفي هذه المرة كان الرئيـــس السادات هو الذي طلب مني عملا « لهدى » .

وفي ذلك الوقت كان ابناؤه الثلاثة خالد وعبد الحميد وعبد الحكيم في سلك الدراسة: اولهم في كلية الهندسة والثاني في الكلية البحرية والثالث في الثانوية .

هكذا كانت ظروف الكل وأحوالهم ، ولست اعرف اذا كان فيها استغلال سلطة من جانبه أو أنها كانت عزوفا عن استغلال السلطة من رجل كان يملك أن يشير بطرف أصبعه فاذا الكل يتسابق ليعطي احسن المناصب وأوسع الفرص لابناء جمال عبـــد النـــاصر .

هكذا كانت ظروف الكل واحوالهم عندما رحل ... وحسابه عنهم يتوقف عند تلك اللحظة من الزمان ، واما بعدها فكل منهم مسؤول عن نفسه .

لكن الرجل ، وتلك أمانة أمام الناس والتاريخ ، لم يحاول تامين حياة اولاده بعده، بل تركهم واثقا « من طيبة قلوب الناس في بلدنا ، وانهم بعده سوف يضعون أولاده في عيونهـــم » !

***

هذه جوانب من تصرفات الرجل « كانسان » ، وهي واضحة في تعبيرها عـــن

مجموعه القيم الاجتماعية التي يؤمن بها ، وعنها تصدر تصرفاته .

وننتقل منها الى مجموعه اخرى من القيم الانسانيه تظهـــر في تصرفاته كمشتغل بالســـياســـة .

... نتساءل مثـــلا :

من الذي يضع الاموال السائلة الطائلة تحت تصرف أصـــدقائه : « المعســـكر الراسمالي او المعسكر الاشتراكي ؟ » .

لا يشك أحد في ان التعامل مع المعسكر الراسمالي اقرب الى تحقيق مزايا مالية لا شك فيها لمن يبحث عن ثروة تكون تحت تصرفه خفية وبغير ان يعرفها احد .

ولا نذهب بعيدا ، ففي الوقت الـــذي تصور فيه الرئيس الامريكـــي « دوايت ايزنهاور »ان النظام المصري بعد الثورة على استعداد لمسايرة السياسة الامريكية ، بادر فوضع تحت تصرف سلطة الدولة العليا في مصر ثلاثة ملايين دولار لكي تصرف سرا في أي وجه تراه في هذه السلطة ضروريا لامنها ، واحدث تقديم هذا المبلغ لسلطـــة الدولة في مصر وقتها دهشة واكتنفته ظروف مثيرة ثم تقرر توجيه المبلغ الى بناء برج القاهرة وشبكة مواصلات مع العالم فيه ، واصبح برج القاهرة بعد هذه القصة رمزا عاليا لسخافة السياسات الخفية للولايات المتحدة الامريكية .

ولكن ذلك لم يوقف الاموال الضخمة المتدفقة او المستعدة للتدفق على كل مـــن يتوافر لديه الاستعداد ليساير .

ولقد ساير كثيرون في الشرق الاوسط وخارجه ، والقصص والروايات عن المبالغ الخرافية التي اصبحت توضع خفية تحت تصرف الذين يتوافر لديهم الاستعداد للمسايرة شائعة ذائعة في دوائر لجان التحقيق في الكونجرس الامريكي ، وبينها مثلا ان « الجنرال ثيـــو » رئيس فيتنام الجنوبية كان يحصل سرا كل سنة على مائة مليون دولار توضع تحت تصرفه بترتيب خاص بينه وبين الرئيس الامريكي ، بل واقرب من ذلك الينا مكانا وزمانا فلقد تسرب قبل شهرين سر اعطاء زعماء الحزب الديمقراطي المسيحي في ايطاليا مبلغ ستة ملايين دولار في شهر ديسمبر الماضي وقد قدمت اليهم من اعتمادات وكالـــة المخابرات المركزية الامريكية .

ولم يكن جمال عبد الناصر قريبا من التعاون او التواطؤ مع هؤلاء الذين يعطون المال بغير حساب ، ولو كان على استعداد ليساير لاغترف ما يحلم به وما لا يحلم به ولكانت عنده الاموال بغير حساب .

لكن اختياره الدولي ... كان اختيارا مستقلا بعيدا عن ذلك كله !

***

... ونتساءل مثـــلا :

ما هي الابواب التي ينفتح فيها باب الغنى على مصراعيه لمن يريد ان يمد يـــده الى الثروة الملعونـــة ؟

لا يختلف أحد في أن اوسع أبواب الغنى لمن يريد هو باب مشتروات السلاح، وذلك باب اغلقه جمال عبد الناصر تماما ، فالحصول على السلاح من الاتحاد السوفييتي ـــ

مع انه قرار سياسي بالدرجة الاولى — الا ان بين اثاره الاجتماعية الكبـرى أن باب الرشاوي والارباح من تجارة السلاح الملعونة اصبح مسدودا لا سبيل الى النفاذ منه .

هل يغلق رجل يبحث عن الثروة من أي طريق مثل هذا الباب وهو باب الملايين ... عشرات الملايين ... مئات الملايين ؟!

***

... ونتساءل مثلا :

لعله اعد نفسه ليوم يضطر فيه الى الهرب من موقف صعب ، وحينئذ يجـد في مهربه ما يستطيع ان يعيش به ؟

ولكن ، هل كان « الهرب » في طبعه ؟

اعداؤه — قبل اصدقائه — يعترفون له بانه كان مقاتلاً الى النفس الاخير ، ولو كان ممن تقصر هممهم عن تحديات عصرهم لاعفى نفسه — دون حرج — من معارك بعد معارك فرضتها عليه آمال الامة وكان يستطيع ببساطة أن يجعل اذنا من طين وأذنا من عجين ويصد عن سمعه صوت النداء .

لقد انتخب لرئاسة الجمهورية اول مرة في يونيو ١٩٥٦ وكان في استطاعته ان يعطي نفسه فرصة يتمتع فيها بمزايا المنصب وهي هائلة لمن يريد ، لكنه بعد أقل مـن شهرين كان في عين العاصفة بقراره تاميم قناة السويس .

وبعد حرب السويس كان أسطورة في العالم العربي ، فقد حقق للعرب اكبر واكمل نصر حصلوا عليه في تاريخهم الحديث ، وواجه في ميدان القتال ثلاث دول ، بينها اثنتان من الدول العظمى في زمانهما — بريطانيا وفرنسا — وصمد في الميدان رغم تباين القوى العسكرية ولم يستسلم ، ثم انطلق بالعمل السياسي من حيث توقف عسكرياً ووصل الى هدفه كاملا : قناة السويس تحت السيطرة المصرية ، والانسـحاب البريطـاني الفرنسي من بور سعيد كاملا ، والانسحاب الاسرائيلي من سيناء كلها ومن قطاع غـزة لم يوضع للمساومة .

وكان في استطاعته بعد السويس ان يعيش على ماضيه .. ماضيه يكفيه ويصنع منه أسطورة لم تسبق ، ولا تلحق .

ومع ذلك لم تكد نهاية سنة ١٩٥٧ تجيء الا وقوات من جيشه تنزل في اللاذقيـة تشارك مع الجيش السوري في الاستعداد لغزو لسوريا كان يدبره حلف بغداد .

... هكذا وهكذا حياته من أول يوم حتى اخر يوم .

كان غيره معذورا اذا استسلم أمام الانذار البريطاني الفرنسي يوم ٣٠ اكتوبـر ١٩٥٦ وركب طائرة وهرب ... لم يفعل وانما قاتل .

وكان غيره معذورا اذا خانته شجاعته الادبية يوم الهزيمة في ٩ يونيو ١٩٦٧ فترك بيانه للامة مسجلا وركب طائرة وهرب ... لم يفعل وانما بقي ليحمل «المسؤولية كلها» على حـد تعبيره في خطاب ٩ يونيو ١٩٦٧ ، وكانت المفاجأة بالنسبة له كاملة حـين طالبته الامة من الخليج للمحيط بأن يبقى وأن يواصل قيادة المعركة المستمرة ، وبقـي تحت شعار المراحل الثلاث : الصمود والردع والتحرير .

لم تجيء نهاية سنة ١٩٦٧ ، نفس سنة الهزيمة ، حتى كانت قدرة مصر الدفاعية

قد استكملت .
في سنة ١٩٦٨ ، كان قادرا على الردع بمعارك المدفعية على جانبي القناة .
وفي سنة ١٩٦٩ والنصف الاول من سنة ١٩٧٠ ، كا نيخوض حرب الاستنزاف التي يعتبرها المؤرخون العسكريون في الدنيا كلها جولة الحرب الرابعة بين العـرب واسرائيـــل .
وكانت عينه على الجولة الخامسة في الحرب العربية الاسرائيلية : جولة التحرير.
وكان يريد .. وارادات المقادير شيء اخر ... وأغمض الموت عينيه مساء ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ !

***

... ونتساءل مثلا :
ربما كان يريد من ثروة يكدسها في الخارج ان تنق في يوم يضطر فيه الى الحيـــاة لاجئا سياسيا خارج مصـــر ؟
لقد كان مثل هذا الاحتمال خارج حساباته ، وكانت له فلسفة واقعية غريبة في صراحتهـــا ، وكان يقـــول :
ــ ليس لي مكان الا واحد من اثنين : هنا في مكتبي اعمل .. او هناك راقداً في قبـــر ... حتى السجن ــ لو حدث شيء ــ لن تطول اقامتي فيه ، فانهم أنكر من أن يتركوني حيا . »
وكـــان يضـــيف :
ــ اولا فانا لا احب مهنة اللاجيء السياسي .
وثانيا فليس هناك بلد يقبلني لاجئا سياسيا لاني ساكون « مطلوبا » بشدة مـــن الاقوياء الذين حاربت نفوذهم في بلادنا .
وثالثا فان هؤلاء الاقوياء سوف يطاردونني الى اخر الارض الى اخر العمر » .

***

... ونتساءل مثـــلا :
هل كان في طبعه « الاستزلام » للاغنياء طمعا في ان يجودوا عليه بفضول اموالهم.
وهل كان رجلا تهون عليه كرامته فيقبل مالا من خصم قاتله في مبدأ وضغط عليه حتى تنازل عن عرشه ثم فتح له باب وطنه لاجئا تحت سلطانه : كالملك سعود ؟
لقد كان بين مشاكل عبد الناصرانه رجل شديد الكبرياء ، وكبرياؤه وحدها كانت تكفيه عاصما ضد مهانة الرشوة أو ذل الاستجداء !

***

ولقد أردت أن اناقش الموضوع من زاوية مجموعة القيم التي اثرت في تصرفاته كانسان : اجتماعيا أو سياسيا .
ولم أشأ ان أتعرض للناحية البوليسية في الموضوع .
ولم أشأ ان اسأل : ألم يجد وسيلة للثروة غير شيكات من الملك سعود مسحوبة

على بنوك عالمية ... ، الم يجد طريقا اخر غير اتفاقيات رسمية تعقدها وزارة الاقتصاد وينفذها البنك المركزي المصري ؟

ولم اشأ ان اسأل : الم تكن تحت تصرفه خزائن مصر ؟ ألم تكن تحت أمره اعتمادات بغير حدود لاوجه من النشاط السياسي معفاة من اي رقابة ؟

ولم اشأ أن اسأل : لو ان له حسابا سرياً خارج مصر ، حتى لو لم يكن في هذا الحساب غير مليم واحد ، فهل كان أعداؤه وهم الاقوياء في هذه الدنيا ــ خصوصا دنيا البنوك ــ عاجزين عن خزائنها وعن أرقامها ؟

لم اشأ ذلك لان هدفي لم يكن تبرئته من اتهام رموه به .

وقلت وما زلت أقول : انني واحد من الذين لا يعطون لاحد شرف تبرئته قبل ان يعطوا لاحد على اتهامه !

الحديث الثالث

افهم تماما لماذا! تحاول بعض قوى السيطرة العالمية — ولاغراضها — أن تشوه التجربة المصريه التي قادها جمال عبد الناصر ، ولكني **لا استطيع ان افهم — حقيقة — اسباب مسايرة بعض عناصر النظام المصري الحاضر ، بل وحماستها الزائدة احيانا لتشويه هــذه التجــربــة ...**

واريد الان أن أناقش هذه المسألة ، واريد أن أناقشها منطقيا بغير انفعـال ، وبغير تعصب ، وبغير عاطفة !

اسأل نفسي والاخرين : كيف ولماذا ؟
وأطرح هذا السؤال ، وفي ذهني — وفي ذاكرة غيري — سياق متصل من الحقائق والمواقف ، سلسلة مترابطـة حلقاتها ، ممتدة من الامس الى اليوم والى الغد !

أولا — لقد وقف الرئيس انور السادات بنفسه أمام مجلس الشعب قبل أقل من سنة وقال بالحـرف :

« ان الذين يتصورون أن الثورة ثورتان وان العهد عهدان يقعون في خطأ كبير ».

وهذا الكلام من الرئيس السادات واضح ، ثم انه حقيقي الى ابعد حد، فلم يكن أنور السادات شخصا عاديا في نظام عبد الناصر ، ويكفي أن نتذكـر المسؤوليات والمناصب التي تولاها من عضو في مجلس الثورة الى رئيس لمجلس الشعب الى نائـب لرئيـس الجمهوريـة ...

وكان كل رؤساء الوزارات الذين اختارهم أنور السادات في مدة ولايته وحتى الان اقطـابا في عهد عبد الناصر : محمود فوزي رئيس الوزراء قبل ١٥ مايو ١٩٧١ وبعده الى نهاية تلك السنة . ثم عزيز صدقي من بداية ١٩٧٢ الى منتصف ١٩٧٣ حين شاء الرئيس أنور السادات نفسه أن يتولى رئاسة الوزراء استعدادا للمعركة ، ثم عبـد العزيز حجازي بعد حرب اكتوبر ومع محاولة التوجه للانفتاح بعدها .

ولو نظرنا الى قمم السلطات في الوضع الراهن كله لتاكدت لنا هذه الحقيقة :

● انور السادات في رئاسة الدولة وهو الوحيد من اعضاء مجلس قيادة الثورة الذي بقي الى جوار عبد الناصر وبالقرب منه من البداية الى النهاية .

● سيد مرعي في رئاسة مجلس الشعب وقد كان في قمة الجهاز التنفيذي منذ أشرف على تطبيق قانون الاصلاح الزراعي سنة ١٩٥٢ حتى أصبح وزيراً للزراعة ونائباً لرئيس الوزراء ومسؤولا عن التنمية الزراعية في مصر كلها الى يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ وبعده.

● ممدوح سالم في رئاسة الوزارة وقد كان من نجوم جهاز الامن في عهد عبد الناصر ،

بل انه لسنوات طويلة كان مسؤولا عن امن جمال عبد الناصر نفسه في كل رحلاته خارج مصر .

***

ثانيا — ان انور السادات لم يتوقف عن القول ، وبطريقة قاطعة ، بانه مسؤول مع جمال عبد الناصر في كل قرار — ولم يكن انور السادات ليقول بذلك ويقطع به لو انه لم يكن صحيحا ، وفضلا عن ذلك فلقد كان انور السادات هو الرئاسة الثانية دستوريا في مصر بعد عبد الناصر بحكم رئاسته لمجلس الشعب معظم سنوات عهد عبد الناصر ، وحين ترك رئاسة مجلس الشعب فقد ولى بعدها منصب نائب رئيس الجمهورية وهو الرئاسة الثانية عمليا في أواخر عهد عبد الناصر ، وحين قدم انور السادات نفسه الى الامة بعد عبد الناصر لرئاسة الجمهورية فلقد كانت اول كلمة قالها :« لقد جئت اليكم على طريق جمال عبد الناصر » .

وهذا كلام ليس فيه ما يحتمل اللبس ، وأن يحاول بعض الناس تفسيره برده الى تمسك الرئيس السادات « باخلاق القرية » فحجة واهية آن ان يعرف أصحابها انها تسيء الى انور السادات قبل أن تسيء الى جمال عبد الناصر !

كان انور السادات مسؤولا بالممارسة ... او كان مسؤولا بالصمت ..!

وقد رفض الرجل بشجاعة وامانة حجة المسؤولية بالصمت واعلن أنه اشترك مع جمال عبد الناصر في « رسم كل سياسة واتخاذ كل قرار » .

***

ثالثا — ولربما يقال :

— نظام يريد ان يحاكم نفسه او ليست هذه آية الضمير الحي ؟ .

ولكن اي محاكمة لا بد لها من قانون ، ولا بد لها من قضاة ، ولا بد لها من شهود ، ولا بد لها من رأي عام يملك وسائل ان يتابع ويراقب .

وفي محاكمة نظام سياسي فان ايجابياته يجب أن توضع ازاء سلبياته لكي يكون هناك ميزان ترجح فيه كفة وتخف فيه كفة اخرى .

وهذا كله غير موجود فيما يجري الان في مصر .

لا قانون ولا قضاة ولا شهود ، ولا رأى عام يملك وسائل المتابعة والمراقبة

ثم انه ليس هناك ميزان للسلبيات والايجابيات ...

كل ما يقال في مصر الان ، وبغير ميزان ، لا تظهر منه غير السلبيات كئيبة كلها ومظلمة ... عشرون سنة متصلة من الظلم والفساد !
ليكـــــن ..!

ليكن أنها كانت كذلك كلها ، لم يتخللها شعاع ضوء ، ولم تظهر خلالها مواقـف مجـد وشـــرف ...
ليكــن ! ..
لكن معنى القول بذلك هو ادانة النظام الذي حكم مصر منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ الى اليـــــوم ...
ادانته بالكامل ... ادانة لا تستثني احدا ولا تبقي على شيء .

واذن يذهب النظام كله من اوله الى اخره بلا أسف ولا أسى ، فالوطن والامة أولى من أي نظام وابقى من أي حكم .

ولقد أضيف الى هذه النقطة ملاحظة أتساءل فيها :
ــ ومع ذلك فهل النظام هو الذي يحاكم نفسه بنفسه اليوم ويقوم بتجربة في النقد الذاتي ... آية من آيات الضمير الحي ؟!
أم أن الذين عادوه وعاداهم ــ بصرف النظر عن الاسباب ــ هم الذين يحاكمونه الان ويكتبون القانون وينصبون المحكمة ويجيئون بالشهود ويوجهون الادعاء !؟
أليس مشهدا غريبا أن تقف الثورة متهمة أمام الثورة المضادة وأن يحدث ذلـك بغـير انقـلاب ؟!

***

رابعا ــ ولقد يعترض علي احدهم ويقول :
ــ ذلك تطرف لا مبرر له ، وهو قفزة من النقيض الى النقيض ..!
وهل نقبل ما كان في النظام كله على علاته لا نناقشه ، او يكون البديل اسقاط النظام من اساسه بغير مناقشة ؟ »
ولعلي اخر اخر من يقول بذلك ، وشاهدي في ذلك ما كتبته في نقد ممارسات النظام في حياة جمال عبد الناصر نفســه ، فلقد كتبت وافضت في الكلام عن تجاوزات وقعت في كثــير من المجالات ... ولخصــت رايي يومــا في نقد النظام بانه « يعتمد اكثر مما يجب على سلطة الدولة في الداخل ، واكثر مما يجب على قوة الدولة فـي الخارج » ، وما زال ذلك نقدي الاساسي لعهــد جمال عبد الناصر ، وربما لم ينـس الناس ان اول محاكمــة « لمراكز القوى في مصر » ــ وبهذا الوصف نفسه ــ جرت في عهــد عبد الناصر ، ولعلي لا اتجاوز حدي اذا قلت انني المسؤول عن صك عبارة وردت في خطاب جمال عبد الناصر اما مجلس الامة الذي انتخب على أساس دستور ســنة ١٩٦٤ ــ والذي راســه انور السادات ــ والتي كان نصها « ان سيادة القانون لا بد لها ان تعلو على مراكز القــوة » .

واذن فاني احد من ينكر حق وواجب اي نظام في تصحيح مساره .
ولكني افرق بين التصحيح وبين الادانة الكاملة والنهائية .
التصحيح ليس ثورة جديدة ، ولا هو ثورة مضادة .
ولكن التصحيح عملية ازالة شوائب لحقت بالعمل الوطني أثناء ممارسته اليومية لمبادئه الاصيلة واستراتيجيته المتصلة .
وبالتالي فانه ليست بداية جديدة ، وانمـــا هي دفعة مضافة .

ومن هنا مثلا فانني مع اعتزازي الشديد بالدور الذي قمت به شخصيا الى جانب انور السادات في الاحداث التي وقعت في مصر خلال شهر مايو ١٩٧١ — لا أعتبر أن ١٥ مايو كان ثورة جديدة في مصر .

ولعلي واحد من الذين يرون الاصرار على اعتبار يوم ١٥ مايو بداية ثورة جديدة بدا بهـــا عهـــد انور السادات ، ظلم لانور السادات واساءة اليه قبـــل أن تكـــون الاســــاءة لغــيره .

معنى ذلك ببساطة انهم يأخذون من انور السادات مجد منجزات شارك فيهـــا ، وهي من أرصدة قوته . ومن منجزات الثورة التي يحمل اليوم علمها .
معنى ذلك ببساعة أنهم يأخذون من رصيد أنور السادات امجـــاد ٢٣ يوليـــو ، والاصلاح الزراعي ، واعلان الجمهورية ، وكسر احتكار السلاح ، ومعركة مقاومـــة الاحلاف ، وحروب تصفية الاستعمار ، وتأميم قناة السويس ، وحرب السويس العظيمة نفسها ، والتصنيع ، والتحول الاشتراكي ، والتصدي لمسؤولية الوحدة العربية ، وبناء السد العالي ، وقيادة حركة الثورة الوطنية وتيار عدم الانحياز ، وانشاء منظمة الوحدة الافريقية ،وعودة بترول العرب للعرب ، الى اخره ... الى اخره .

ولقد مرت أيام مثل يوم ١٥ مايو في حياة دول وشعوب غيرنا ، ولكنها بقيت في نطاقهـــا ... عملية تصحيح في مسار العمل الوطني لا أكثر ولا أقـــل .
وعلى سبيل المثال فان سقوط « بريا » في الاتحاد السوفياتي لم يكن بداية ثورة جديــــدة .

وسقوط «رانكوفيتش» في يوجوسلافيا لم يكن بداية ثورة جديدة .
واخيرا فان سقوط « ويليام كولبي » مدير وكالة المخابرات المركزية الامريكيـــــة وسقوط سطوة المخابرات معـــه لم تحفز احدا لكي يقترح على الرئيس « جيرالـــد فورد » أن يكون اخراج « كولبي » اعلانا لقيام الجمهورية الامريكية الثانية !

مراجعة التجربة اذن مطلوبة ، والتصحيح بعدها حق ، لكن التصحيح يبدأ من التسليم بأن القاعدة سليمة والاستراتيجية صحيحة ، ولكن التفاصيل تجاوزت أحيانا، والممارسات شطت عن الطريق في بعض المرات ... وأذن وقفة ... واذن عـــودة الـــى الطريـــــق .
لكن ما يحدث في مصر الان ليس كذلك !

انه ادانة كاملة نهائية كما قلت . . .
ليست وقفة ولكنها محاولة اغتيال لكل ما كان .
واذا كانت عودة فهي ليست عودة الى الطريق . ولكنها : عودة عن الطريــق ، عودة الى ما قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ !

***

خامسا — ويقول بعضهم ، وذلك يقال فعلا ؟
— لماذا نعقد الامور ، ولماذا نرى فيها ما ليس فيها ؟
لماذا لا ننسب ما نراه الان في مصر الى صحافة حصلت على حريتها اخيرا فشط بها القول من منطق التجربة والخطــا ؟!
وكان مناي ان لا يستعمل الادعاء بحرية الصحافة في هذا الصدد للاسباب التالية :

١ — ان الصحافة في مصر ما زالت مملوكة للاتحاد الاشتراكي — وهو بوضعه — سابقا ولاحقا لكي اكون منصفا — جهاز من اجهزة السلطة في مصر .
٢ — ان القيادة السياسية مارست حقها — وهذا مشروع في الاوضاع الراهنة — وأجرت تغييرات شاملة في القيادات الصحفية اطمأنت بها لوضع العناصر الاكثر تعبيرا عن سياساتها ووجهات نظرها على مفاتيح التوجيه العام في مصر .
٣ — ان القول بوجود حرية صحافــة في مصر هــو — عمليــا — ضرب مــن الوهم او الايهام ، والدليل عليــه قائم كل يوم في الصحافة المصرية .

وكل صحفي في مصر يعرف على سبيل المثال ان هناك مكتبا رسميا يبلغ الصحف كل يوم بقائمة ما لا يجوز نشــره .
وكان من الممنوعات في وقت من الاوقات نشر اية تفاصيل عن فضائح (ووترجيت) التي ادت الى سقوط ريتشارد نيكسون ، ولم يسمح بالنشر في هذا المجال وفي اضــيق نطاق الا عندما بدا ان نهاية ريتشارد نيكسون محتومة .

وكان من الممنوعات — ولا يزال — نشر اي شيء عن تفاصيل التعهدات السرية التي اعطتها الولايات المتحــدة لاسرائيل ملحقة باتفاقية سيناء الاخيرة .
ولا اريد تادبا ان اخوض في عينات من الممنوعات الأخرى !
واذن فان هناك يدا تمتد بالحظر والاباحة .

ويبدو غريبا جدا في رايي ان تكون هناك حصانة مقدسة لريتشارد نيكسون — وأن تكون هناك استباحة كاملة لجمال عبد الناصر .

وارد نفسي عن اية تفاصيل اكثر من ذلك في مسألة حرية الصحافة في مصــر والتعلل بهــا في حملــة التشويه والتشويش الجارية الان في مصر .
ومع ذلك فلا استطيع ان اترك هذه النقطة دون اشارة الى ظاهرة من اهــم الظواهر الصحية في مصر المعاصرة .

ذلك انه اذا كانت الصحافة العامة في مصر تشترك — واعية او ساهية — في

حملة اغتيال شخصية جمال عبد الناصر — فان هناك صحافة اخرى تخوض معركة ضارية وباسلة دفاعا عنه ... دفاعا عن المبادىء الاصيلة في تجربته ، وتلك هي صحافة الشباب ... جرائد الحائط المعلقة بالمئات في انحاء الجامعات المصرية ، الى جانب الصحف التي تصدرها اتحادات الطلاب أو جماعات الشباب .

وتلك شهادة لعبد الناصر .

رواسب الماضي تحاربه ، وطلائع المستقبل تحارب معه !

***

سادسا — ومع ذلك فان صدقنا ما يقال عن « انفلات » الصحافة العامة في مصر، فهل الحملة ضد عبد الناصر — حملة الادانة الكاملة والنهائية — قاصرة على هذا النطاق ؟

الحملة اوسع وفيها ما يلفت النظر .

فيها خطابات رسمية تلقي في مناسبات عامة وهي الاخرى ادلة كاملة ونهائية .

فيها مطبوعات ومنشورات صادرة عن أجهزة رسمية للدولة وهي الاخرى ادانة كاملة .

فيها اذاعات مسموعة واذاعات مرئية وافلام سينمائية لا تفعل كلها غير تكريس ادانة التجربة من أولها الى اخرها وبطريقة ساحقة ماحقة !

الخص آرائي في النهاية لكي لا يكون هناك لبس :

١ — في تجربة عبد الناصر كثير يستحق النقد ويستوجب التصحيح ، شأنها في ذلك شأن اي تجربة انسانية ضخمة وهائلة ، والفرز ضروري ، والتقويم حق ، والتصحيح واجب .

٢ — لقد ناديت ، وما زلت انادي بضرورة التحقيق النزيه في كل جوانب التجربة حتى يظهر وجه الحقيقة ، وقلت وما زلت أن اطلاق التهم بغير تحقيق لن يؤثر في عبد الناصر بقدر ما يؤثر في وجدان الشعب المصري لانه يفقده الثقة في كل شيء ، وليس هناك كائن حي ... فردا كان او شعبا ... يستطيع أن يعيش ويكافح اذا سقطت في خياله كل المثل ، وكيف يمكن لشعب مصر مثلا ان يثق بنفسه اذا ظل بقية حياته مع الشكوك القاتلة : فلقد كان جمال عبد الناصر في اعتقاده بطلا وطنيا وقوميا رفعه في حياته على كل الرؤوس وشيعه عند رحيله في بحر من الدموع ... أفلا يملك هذا الشعب ان يعرف أخيرا كل الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة في أمر مثل هذا الرجل ؟

هل كان البطل « جلادا سفاحا » كما يصورونه اليوم ؟

هل كان المناضل « لصا مهربا » كما يصورونه اليوم ؟

هل كان القائد « قاتلا مع سبق الاصرار » ... دس السم لطبيبه الخاص الدكتور انور المفتي ... ورتب كمينا بقنبلة مدفع — ! — للفريق عبد المنعم رياض وهو الذي كان يدخره لمعركة التحرير التي يخطط ويستعد لها ؟

او ليس ذلك بعض ما قيل بغير تدقيق أو تحقيق ؟

٣ — اذا كانت نتيجة التحقيق كله ادانة كاملة ونهائية لنظام عبد الناصر فمن الذي

يتمسك بالنظام كلـــه من اصوله الـــى فروعه ، او ليس الوطن والامة اولى وابقى من أي نظـــام !؟

هذا هو رأيي وتظل عندي بعده ملاحظة أخيرة .

اننا لم نفعل ما فعلناه بأنفسنا فقط ، وانما أسأنا الى امتنا العربية كلها ، وكنا بمثابة من يقول لـــها :

ــ لا تعتمدي في شيء على مصر . . . فليس لدى مصر الا قناع الخداع .

لـــــــــاذا ؟

لان الامة العربية امامها خياران :

- أن تصدق ما يقال الان فتحكم على مصر من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حتى ١٥ مايو ١٩٧١ .
- أو أن ترفض تصديق ما يقال الان فتحكم علـــى مصر بعد ١٥ مايـــو ١٩٧١ حتـــى هـــذه اللحظـــة !

ومصر خاسرة في الحالتين . . . وكذلك الامة العربية . .

كلاهما بين الضـــحايا . . .

ومن الجانـــي ؟

هذا هو السؤال !؟

الحديث الرابع

« اعترف انني شعرت براحة نفسية عميقة حينما قرأت للرئيس السادات حديثا مع جريدة «عكاظ» السعودية ورد فيه على لسانه قوله : « انني كنت مع جمال عبد الناصر في كل همسة » !

ومبعث ارتياحي هو انني وجدت في قول الرئيس السادات ردا على هؤلاء الذين يحاولون ادانة جمال عبد الناصر دون ان يؤدي ذلك الى ادانة النظام الذي قام في مصر من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ — من أوله الى اخره !

... يتصورون انهم بذلك — سذاجة أو خبثا ؟! — يكررون في مصر ما يظنونه حدث في الاتحاد السوفييتي حين أدين ستالين ولم يؤد ذلك الى سقوط النظام الشيوعي كله . وفي ظنونهم — أو أوهامهم — ان عبد الناصر قام في مصر بدور ستالين وان أنور يقوم بدور خروشوف في التجربة المصرية !

وهم في ذلك ينسون — او يتناسون — فوارق شاسعة بين التجربة المصرية والتجربة السوفييتية .

الاتحاد السوفييتي مثلا كان يمكن اغلاقه عما حوله ..

ومصر يستحيل فيها ذلك مهما كانت القبضة الممسكة بها من حديد لان شواطىء مصر بمثابة نوافذ مفتوحة على العالم كله وعند نقط مواصلاته ..

والاتحاد السوفييتي مثلا كان يمكن ان يستغني عما حوله ..

ومصر يستحيل ان تستغني عما حولها لانها جزء عضوي منه . وطن من أوطان امة عربية لا تستطيع ان تعيش الا متصلة بها ولا تقدر على ممارسة دورها الا في اطار تأثيرها ..

ثم أن التركيب الحضاري مختلف . والعقائد الاجتماعية مختلفة ..

وفضلا عن ذلك فان جمال عبد الناصر كان شيئا اخر غير جوزيف ستالين . ولا استعمل هنا أوصاف تفضيل كأحسن او اسوأ لاني اعتقد ان كل زعامة سياسية تعبر عن مرحلة تاريخية في سياق من التطور متحرك ومتواصل ..

***

ومن هنا — ولاسباب اخرى — فانه من العيب ان يوضع انور السادات في الموضع الذي ترويه القصة المشهورة عن خروشوف . حينما وقف في اجتماع من الاجتماعات يهاجم عهد ستالين ويتحدث عن المظالم التي وقعت فيه وتلقى خروشوف اثناء الاجتماع ورقة مطوية من احد حضوره كتب فيها :

« ايها الرفيق نيكيتا خروشوف .. وأين كنت انت عندما جرى هذا كله » .

وقرأ خروشوف الورقة على حضور الاجتماع ثم لاحظ ان مرسل السؤال لم يضع توقيعه عليه ، وسأل :

ـ من هو صاحب هذا السؤال .. انني أطلب منه الوقوف لكي أرد عليه .. ».

ولم يقف احد .

وساد الصمت على الاجتماع كله ..

ثم قال خروشوف :

ـ هذا الصمت هو اجابة السؤال .. لقد كنت مع الرفيق الذي لم يضع توقيعه على ورقة ارسلها الي ! »

لا يمكن أن يوضع انور السادات في هذا الموضع .

ذلك عيب في حق الرجل وتاريخه ونضاله وشخصيته ، ثم انه فوق ذلك مناف للحق والحقيقة في الجملة وفي التفاصيل ..

***

ولعي اقول لكي اكون محددا وواضحا انني لا اتشفع في عبد الناصر بمشاركة انور السادات له . ولا انفي اي تهمة عنه وحده ، بمسئولية انور السادات معه ..

ثم أنني كلما قلت ـ واكرر ـ لا ابرىء عهد جمال عبد الناصر مما يستوجب النقد ..

لكن النقد النزيه شيء ، والادانة الكاملة بالاتهام يلقي على عواهنه شيء اخر ..

والموضوع في رايي أكبر من موضوع عبد الناصر والسادات معا ـ لان الموضوع هو مصر وضميرها وتاريخها ومستقبلها ، وهذه الامة التي اصبناها بالفزع من حولنا ! ..

وقد أضيف ايضا ما يلي :

ـ نعم ... ان عبد الناصر مسئول قبل غيره عن كل شيء وقع في عهده ، وقد كان هو أول من يصر على ذلك ويتمسك به .

أقول ذلك واتذكر يوم ٩ يونيو ١٩٦٧ ..

كان عبد الناصر قد طلب الي أن أعد له مشروع خطابه الى الامة بالتنحي ، وكنا قد تناقشنا في الموضوع في الليلة السابقة وكان رايي متفقا مع رايه في انه يجب « أن يذهب » بعد أن صارت الامور في ميدان القتال الى ما صارت اليه ، ولم يكن في مقدوره انسانيا تلك الليلة مع احزانه وشواغله أن يجلس ليكتب خطابا ، فاتفق معي على نقاطه وتعهدت ان أكتبه له ..

ووصلت الى بيته في الساعة السابعة من صباح يوم الجمعة ٩ يونيو . وكان في مكتبه لم يذق للنوم طعما في تلك الليلة الليلاء وحين دخلت عليه كان التليفون في يده وكان يتكلم مع احد القادة العسكريين في الجبهة يريد أن يضع حدا للفوضى والانهيار اللذان سادا الموقف كله ..

وجلسنا بعدها نراجع مشروع الخطاب الذي اعددته له ووصلنا فيه الى عبارة تقول بالنص :

« وفيما يتعلق بي فانني على استعداد لتحمل نصيبي من المسئولية » ..
كنت قد كتبت هذه العبارة وأنـا أعرف الظروف ولكـن جمال عبـد النـاصر استوقفني عندها وقال لي بالحرف :
ـ ما هو معنى أن اقول « انني على استعداد لتحمل نصيبي من المسئولية » ..
وهز رأسه نفيا قاطعا ثم قـال :
ـ لا ارضى ذلك لنفسي ... انني تاريخيا اتحمل المسئولية كلها ويجب أن اقول ذلـك للنـاس » ..
وغيرت النص بعد اصراره على النحو الذي رآه .
أروي تلك الواقعة دلالة على أن جمال عبد الناصر نفسـه اول الراضين ـ والمصرين ـ على أن يتحمل المسئولية كلها ، عن كل ما جرى في عهده ..
لكننا عندما نقول بذلك يجب أن ننصب ميزانا لهذه المسئولية يفرز الخطأ عـن الصواب ، والايجـابي عن السلبي ، والحقيقة عن الادعاء !
ثم أن علينا بعد ذلك أن نضع الوقائع في اطارها ، والتصرفات في ظروفهـا ، والخيارات في حدود المتاح منها وقتها ـ والا كنا بمثابة من يدعي الحكمة بأثر رجعي ، أو يطلب عصمة الالهة لاحكام البشر ! ..
... في حدود هذا المنطق وبالقرب منه فسوف اختار ثلاث وقائع ينسب الى جمال عبد الناصر أنه تصرف فيها كما يتصرف « سـفاح » ـ هكذا قيل وبالحرف !

« سفح » دم أبناء مصر على جبال اليمن ، و « سفح » دم العدالة في مذبحـة للقضاء ، و « سفح » دم الحرية باغلاق الصحف !

***

سوف ابد باليمـن فأسـال :
ـ هل يمكن ان يكون هناك تقييم للتدخل العسكري المصري في اليمن لا يأخذ في حسابه الظروف السياسية التي كانت تسود العالم العربي وقتها ؟
كان ذلك بعد مؤامرة الانفصال ، ونحن نذكر ملابساتها وما جرى في سـوريا وقتهـا ، وكان ذلك في أعقاب مؤتمر « شتورة » الـذي اتخذه النظام الانفصالي في سوريا منبرا للهجوم على الحركة الوطنية العربية ، وكان يبدو ان القوى المعادية للتقدم العربي تريـد أن تخنق كل صوت ينادي بالتحرر العربي ..

وفي ذلك الوقت جاءت ثورة اليمن ، وانقضت عليها العواصف ، ولا اريـد ان أعود الى التفاصيل حتى لا انكأ جراحا قديمة شفاها الزمن فيما أتمنى ..

وفي يوم عصيب من ايام شهر اكتوبر ١٩٦٢ كانت ثورة اليمن الوليدة وحـدها في مهـب العاصـفة .

وفي القاهرة كانت هناك مشاورات مستمرة بعد أن طلبت الثورة الوليدة نجدة من مصر بدورها وحجمها في العالم العربي في ذلك الوقت ..

وكان انور السادات اكثر الناس اهتماما بهذا الموضوع في القاهرة لان اختصاصه السياسي في القيادة المصرية كان يشمل ضمن ما يشمل شئون اليمن والجنوب العربي والخليج ، وكانت توصية انور السادات — في نطاق اختصاصه — تتلخص في أن مصر لا يسعها أن تتفرج على ما يجري في اليمن مكتوفة اليدين ، وأن الواجب القومي يحتم عليها ان تتدخل عسكريا — خصوصا بالطيران — لرد العاصفة عن الثورة اليمنية.

وأتذكر أنه كان لي في الموضوع رأي يختلف ، وقد قلته لجمال عبد الناصر ، ودارت مناقشات واسعة حول هذه التوصية ..

واتجرأ فأقول ذلك لان جمال عبد الناصر اشار الى رايي في اخر جلسة حضرها لمجلس الوزراء قبل رحيله ، وما قاله في هذا الصدد مسجل بصوته في وثائق مجلس الوزراء ... شاهدا ومرجعا ..

كان رايي في ذلك الوقت يتلخص فيما يلي :

- انني لا أعرف اذا كانت الظروف الموضوعية في اليمن مهيأة لنجاح الثورة ..
- ثم أنني لا أعرف اذا كانت الثورة التي قامت في اليمن تستطيع أن تتحمل عمليا ثقل التدخل العسكري المصري في اليمن ، وبواسطة القوات المسلحة المصرية .

وسألني جمال عبد الناصر سؤالا مباشرا :

— هل معنى ذلك ان نترك الثورة اليمنية وحيدة يسهل ضربها ... وماذا يحدث للحركة العربية العامة اذن ؟

وقلت :

— انني ادرك اهمية نجدة ثورة اليمن ، ولهذا فانني اقترح تشكيل قوات متطوعين عرب من كل البلاد العربية يذهبون الى اليمن للقتال في صفوف الثورة » .

واضفت متحمسا :

— لماذا لا نجعل اليمن معركة شعبية للحرية بمثل ما كانت الحرب الاهلية في اسبانيا معركة شعبية للحرية ، وحتى لو اننا خسرنا المعركة فان الخسارة ستتحول الى اسطورة في النضال العربي تلهم وتلهب خيال أجيال بعد أجيال ..

ذلك اسلم في رأيي من الزج بالقوات المسلحة المصرية في ظروف شاقة معظمها مجهول .. »

ثم قلت للرئيس وقتها :

— لدي دراسة قام بها باحث مصري عن الاحوال في اليمن وعن تاريخه المعاصر ، وأريدك ان تقراها ، وسوف أرسلها لك ..

(اشار جمال عبد الناصر الى هذه الدراسة في التسجيل الموجود بصوته في سجلات مجلس الوزراء في اخر جلسة حضرها قبل الرحيل) .

كان الراي المقابل لرايي وقتها يتلخص فيما يلي :

- أن امن ومستقبل الحركة الوطنية العربية معلق في الميزان ..
- أن الوقت لا يحتمل التردد ، والا ضاعت الثورة اليمنية ..
- أن تدخل بعض قوات الصاعقة ، وسرب واحد من الطيران يكفي ..

وبهذا المنطق تدخلت مصر لنجدة الثورة في اليمن وكان انور السادات — ولمدة خمس سنوات متصلة — هو المسئول الذي تولى ادارة الجهد السياسي المصري في اليمن في حين ان عبد الحكيم عامر كان المسئول عن الجهد الحربي ..

واعترف الان — وهذه شهادة صدق — ان انور السادات كان على حق في مناداته بالتدخل العسكري لحماية الثورة في اليمن وانني كنت على خطأ لانني نظرت الى الموضوع من وجهة نظر مصرية اقليمية بحتة وذلك لا يجوز ازاء مسئولية مصر ودورها القومي ..

ذلك لان الزاوية القومية هي الزاوية التي يجب ان نقيس منها التدخل في اليمن ، فلقد أحدث التدخل المصري في اليمن اثارا واسعة المدى الخصها فيما يلي :

١ — لقد خرج الاستعمار البريطاني من شبه الجزيرة العربية ، واستقل الجنوب واستقل الخليج .

٢ — تحت ضغط التدخل المصري فان قوى السيطرة الامريكية اضطرت الى ارخاء قبضتها على الموارد العربية في شبه الجزيرة واتخذت موقفا اكثر تلاؤما مع الانظمة الوطنية وسمحت لها بدور متزايد في توجيه أمور ثرواتها ..

٣ — ان الدول الوطنية في هذه المنطقة اتجهت تحت ضغط الظروف الى «التحديث» وقد كان من النتائج المباشرة لتطورات المعارك في اليمن ان اعتلى الملك فيصل عرش السعودية ، وبدات عملية « التحديث » في المملكة تحت توجيهه ، وراحت الاسرة في السعودية تتحول الى دولة ..

وهذه كلها منجزات تاريخية ضخمة لا يمكن تقييم التدخل المصري في اليمن بغير ادخالها في الحساب بصر فالنظر عن الثمن الذي دفعته مصر ..
واذا أردنا ان نناقش الثمن الذي دفعته مصر فان ذلك سوف يقودنا الى تأمل

الظروف التي اتسعت فيها حرب اليمن ..

أن الحرب اتسعت لا لأن هذا الطرف العربي أو ذلك تدخل فيها ، وانما اتسعت الحرب حينما تدخلت فيها قوى السيطرة العالمية ، وفي مقدمتها ادارة المخابرات المركزية الامريكية التي جندت للحرب الافا من الجنود المرتزقة الاجانب ، انجليز والمان وفرنسيين وأمريكيين ، وقصة هؤلاء ذائعة مشهورة ، ولكن ذاكرتنا ضعيفة ننسى بسهولة ما هو حق لنا ونبتلع بسهولة دعاوي الاخرين علينا ..
ننسى أنه في وقت من الاوقات كان هناك اكثر من خمسة عشر الفا من الجنود المرتزقة الاجانب في اليمن ..

وننسى أن لندن — كما حدث في حالة انجولا — كانت مركز تجنيدهم وتسليحهم وارسالهم الى اليمن ..
اكثر من ذلك ... ماذا أقول ؟

هل أقول — والقول صحيح — أن المخابرات المركزية الامريكية كانت تجند المرتزقة الاجانب للحرب في اليمن وأنها كانت مسئولة عن عملياتهم وعن التنسيق بينهم وبين دور لاسرائيل في مساعدتهم ؟

هل اقول ــ والقول صحيح ــ ان اسرائيل كانت تتولى مسئولية القاء الذخائر والاسلحــة بالطائرات لهؤلاء الجنود المرتزقة الاجانب في مناطق محددة في جبال اليمن؟.

هل اقول ــ والقول صحيح ــ أن الرئيس الامريكي جون كنيدي كان يعلم بحقيقة ما يجري في اليمن ، وكان أحد مساعديه وهو المستر كومر هو ضابط التنسيق بــين البيت الابيض وادارة المخابرات المركزية الامريكية ، وكان كنيدي يسمي حرب اليمــن بقوله : « حرب كومر الخاصة ؟ »
واذا قلت بذلك ــ اذن الا نكون وضعنا حرب اليمن في سياقها الصحيح من قصة النضال العربي المعاصــــر ..

اطارها مسئولية مصر القوميــة ..
ظروفها الصراع المتصل بين الحركة الوطنية العربية وبين قوى السيطرة العالمية.
ونتائجها ليس فقط ما دفعته مصر من تضحيات في اليمن ، ولكن هذا التحــول الضخم الذي نراه الان في شبه الجزيرة العربية ، وعند طرفها الجنوبــي ، وعلى شطآن الخليــج ! ..

***

مذبحة القضاء وسفح دم الحريــة

انتقل الان الى واقعة « سفح » دم العدالة « بمذبحة القضاء » ، وسوف اروي بشأنها ما اذكره من ظروفها ، وأعتقد أن ذاكرتي ما زالت سليمة ..

اقول اولا ان جمال عبد الناصر لم يتدخل في حياته في حكم من احكام القضاء ، وكان لديــه ذلــك الاحساس العميق بقدسية العــدل ، وهو احساس له جــذوره البعيــدة في المجتمع المصري بحكم التكوين الحضاري لشعب استقرت حياته في بيئــة زراعية ترسخت فيها فكرة الاحتكام الى قانون القضاء .

وأتذكر الحرج الذي احس بــه يوما حين جاءه خطاب مكتوب من «الملك سعود» يرجوه فيــه أن يتدخل لكي تحصل « السيدة ناريمان » ملكة مصر السابقة على طلاق من زوجهــا « الدكتور أدهم النقيب » . وكانت « ناريمان » قد لجأت الى الملك . وكان النزاع بين الزوجين قضية أمام محاكم الاحوال الشخصية في مصر وصلت الى حــد أن طلب الزوج زوجته في بيت الطاعة واستصدر حكما قضائيا بما طلب ..
وأراني جمال عبد الناصر خطاب الملك سعود اليه بتوقيعه وهو يقول :
ــ انني اريد ان اجامل الرجل في اي شيء يطلبه مني .. ولكنه قصدني حيث لا أستطيع ان اجيب طلبه ، ولا أعرف كيف ارد عليه ، وهل يصدقني اذا قلت له انني لا استطيع ان اتدخل في اعمال محكمة شرعية ؟ وكيف اتدخل ؟! » ..

رويت هذه الواقعة الصغيرة كمقدمة فقــط !

واصل منهـا الى الظروف التي احاطت بما اطلق عليه وصف مذبحة القضـاء في صيف سـنة ١٩٦٩ .

في صيف ذلك العام ١٩٦٩ كان جمال عبد الناصر في اجازة اجبارية بالاسكندرية ، كان مقررا ان يسافر في ذلك الصيف للعلاج الطبيعي مرة ثانية في مصحة «تسخالطوبو» في الاتحاد السوفييتي ، ولكن تطورات حرب الاستنزاف عوقته عن السفر ، واجـل سـفره اسبوعا بعد اسبوع ، ثم الغى سفره في تلك السـنة تماما ليكون بقـرب المعارك الدائرة على الجبهة ونصحه الأطباء بأسبوعين علـى الاقـل يقضيهمـا في اجـازة كاملـة ..
ولكن شواغله كانت تلح عليه ، ولا تمنحه الفرصة التي يلح عليها اطباؤه ..

وسمعت منه ذات مرة خلال تلك الفترة في الاسكندرية ان بعـض المشـاكل في مجال القضاء تطرح نفسها عليه ، وان تقارير امامه تشير الى أن بعض المحاكم تطرد فلاحين من اراضيهم المستأجرة لصالح كبار الملاك ثم أن بعض هذه التقارير يشير الى ان بعض القضاة الذين اصدروا مثل هذه الاحكام سبق أن طبقت عليهم او على أسرهم احكام قانون الاصلاح الزراعي ، وكان رايه ان ذلك وضعا لا بد من بحثه وانه شكل لذلك لجنة خاصة سوف تقدم اليه توصياتها ، وكان بين أعضائهـا السادة شعراوي جمعـة وسامي شرف والمستشار عمر الشريف المستشار القانوني لرئاسة الجمهورية واخـريـن ...

ولاحظ هو تحفظي على ما سمعته منه فاضاف :
ــ انني وضعت انور السادات على راسهم لكي يتابع ما يفعلون ، وهو بينهم الذي يتصل بي . »

ورغم انني احسست بارتياح الى وجود انور السادات بالقرب من عمل هـذه اللجنة ، فان الحساسية الخاصة لموضوع القضاء جعلتني افكر واحاول من بعيـد متابعة عمل اللجنة واسال كثيرين من المتصلين بالمسالة وبينهم المستشار ممتاز نصار سكرتير نادي القضاة ، وقد لقيته في تلك الفترة اكثر من مرة ..

وذات مرة في الاسكندرية كنت على موعد مع جمال عبد الناصر في اسـتراحة المعمورة في الساعة الثانية عشر ظهرا ، وكنت أريد أن اكلمه ــ ضمن موضوعات أخرى ــ في مسالة القضـاء ..

ولكي اكون مستعدا دعوت الدكتور جمال العطيفي وهو المستشار القـانوني للاهرام وقتها ووكيل مجلس الشعب الان ، الى لقائي في الصباح الباكر من ذلك اليوم ، واثرت معه موضوع القضاء تفصيلا ، وسمعت منه رايه وهو راي خبير يدرك اهمية وخطورة وجلال تناول موضوع له هذه الحساسية ..

وطال حديثنا الى قرب الظهر ، وراودني احساس بأن جمال عبد الناصر يجب ان

يسمع ما سمعت من جمال العطيفي ولكن كيف ؟!

وقلت لجمال العطيفـــي :
ـــ انني على موعد مع الرئيس ، وسوف اقول له ما سمعت منك ، واريدك ان تركب معي في سيارتي وتنتظر فيها ، حتى اذا ما احتجت الى اية تفاصيل اثناء حديثي مع جمال عبد الناصر خرجت فاستوضحت منك ما اريد » ..
وذهبنا الى المعمورة ودخلت مكتب جمال عبد الناصر وسيارتي في الخارج ينتظرني فيهـــا جمال العطيفي ..

وفتحت الموضـــوع ..
قلت أن مسألة القضاء حساسة ، فهو مرفق في مصر مقدس ، وأي اقتـــراب منـــه يجب أن يكون بمنتهى الدقة والتحرز .

ثم قلت انني تحدثت في هذا الموضوع مع خبراء يعرفون أهميته وقدره وبينهم جمال العطيفي الذي كان معي هذا الصباح وحتى الظهر وكان بودي لو أن الرئيـــس استطاع ان يسمعه مباشرة ..
ثم اضـــفت :
ـــ لقد فكرت أن أجيء بجمال العطيفي ليقابلك معي وحتى تسمع منه ولكني ترددت.
قلت ذلك وانتظرت ..

وقال جمال عبد الناصر :

ـــ ليتك فعلت ... انني حقيقة اريـــد ان اسمع راي خبير لا علاقة له بجهـــاز الدولة .. كثيرا ما حاولت ذلك في مسائل اخرى ولكنهم يجيئون امامي فلا يتكلمون .
قلـــت :
ـــ أظن أن جمال العطيفي يمكن أن يتكلم خصوصا اذا كنت معه .
وقال الرئيس :
ـــ ليس لك حق انك لم تأت بـــه .
وقلت معترفـــا :
ـــ جمال العطيفي معي في سيارتي هنا في المعمورة ولم اقل له ان هناك احتمالا لان يراك ، وانما قلت له انني قد أحتاج الى استيضاح بعض الامور منه اذا احتجت لذلـــك ..
وقال عبد الناصر :
ـــ اذهب وأت بـــه ؟ ..
وخرجت الى سيارتي وجمال العطيفي ينتظرني فيها أقول له أن الرئيس يطلبه .
وفتحت الدهشة فمـــه ولكنه سار معي . وقلت له ونحن ندخل البيت :
ـــ جمال هذه فرصة لا تعوض ... وارجوك أن تتكلم بنفس الصراحة التي كنت تتحدث بهـــا معـــي .

ودخلنا على جمال عبد الناصر .

بعد عشر دقائق من الحديث كان جمال عبد الناصر قد ازال بحديثه البسيط كل اثر للدهشة والرهبة عند رجل لم يكن يعرف انه سيلقاه ، ولم يكن مستعداً للقائه .

ثم استمرت جلستنا في شرفة بيت المعمورة لمدة قاربت الثلاث ساعات .
وكان جمال العطيفي يتكلم ، وكان جمال عبد الناصر يسأل ويستوضح ويستوثق .
وفي النهاية قال الرئيس :
— جمال .. هل عندك مانع أن تنضم الى اللجنة التي تقوم بدراسة الموضوع ..؟
وكان رد جمال العطيفي « أنه يشرفه القيام بأي خدمة يطلبها منه الرئيس . »

وأحسست بعد هذه المقابلة أنني أديت واجبي كمواطن وكصديق لجمال عبد الناصر .
وكان منطقي أنه اذا كانت اللجنة التي تبحث موضوع القضاء تعمل تحت رقابة انور السادات ويشترك في اعمالها جمال العطيفي — اذن فالامور في مسارها الصحيح.

وصدرت بعد ذلك يوم ٣١ اغسطس ١٩٦٩ اجراءات في مجال القضاء ، وأثارت هذه الاجراءات ردود فعل كان يمكن أن يسمعها جمال عبد الناصر ويستجيب لها ، ولكن الثورة في ليبيا قامت يوم أول سبتمبر سنة ١٩٦٩ ، وشدت الانتباه كله الى ناحية أخرى .

. . . .
. . . .

واذن أمام عيني لم يكن الرجل مندفعا بشراسة قاتل — ! — الى مذبحة للقضاء .
لقد كانت أمامه مشكلة اجتماعية سياسية رآها من وجهة نظره — خطأ أو صوابا — تتطلب حلا .
وشكل لجنة لدراستها والتوصية بما يمكن عمله حيالها ، ضمن اعضائها مستشار الرئاسة القانوني ، ووضع فوق اللجنة زميلا له موثوقا به ليتابع اعمالها .
ثم كان على استعداد لان يسمع .
بل وكان على استعداد لان يناقش أكثر مع من يستطيع مناقشته في موضوعه ولو بغير موعد سابق .
وليكن أن شيئا ما فيما اتخذ من اجراءات جانبه التوفيق — ليكن .
لقد كان ممكنا دراسة ما حدث وتحقيقه وتصحيحه وحتى الحساب عن أي تجاوز فيه بدون حملات كراهية ضد رجل نقل احكام القضاء في مصر كلها الى الصدور باسم الشعب وتحت سيادته ...

***

ثم أصل الى قصة « سفح » دم الحرية بمصادرة الصحف ، واظن ان القائلين بها يقصدون واقعة اغلاق جريدة « المصري » التي كان يملكها « الاستاذ محمود ابو الفتح »

والتي كان يرأس تحريرها أخاه « الاستاذ احمد ابو الفتح » .
وكان « أحمد أبو الفتح » قد تعرف على جمال عبد الناصر عن طريق صهره « ثروت عكاشة » الذي كان عضوا مرموقا في حركة الضباط الاحرار .

وكان صوت الاستاذ « أحمد ابو الفتح » من الاصوات المسموعة لدى مجلس الثورة في الفترة الاولى فقد كان دوره — وسط مجموعة الشباب التقدمي الجديد الذي ظهر في حزب الوفد وعلى اليسار من التيار الرئيسي فيه — دورا ظاهرا ومن هنا كان طبيعيا أن يكون الاستاذ « أحمد ابو الفتح » حلقة الاتصال بين النظام الثوري الجديد وبين حزب الوفد الذي كان حزب الاغلبية حتى ذلك الوقت .

ومع بداية سنة ١٩٥٣ كانت الخلافات قد بدأت تدب في العلاقات ما بين جمال عبد الناصر والاستاذ « أحمد أبو الفتح » وكانت لهذه الخلافات ثلاثة أسباب .

أولها — سبب سياسي ذلك ان معنى الديمقراطية لم يكن واحداً بالنسبة للاثنين : كان جمال عبد الناصر يرى أن اي تعبير سياسي انعكاسا لحقائق اجتماعية واقتصادية، واذا كان مطلوبا اقامة ديمقراطية سياسية سليمة في مصر تعبر عن راي الاغلبية وسلطتها فان ذلك لا يتأتى الا اذا كانت الحقائق الاجتماعية والاقتصادية في الوطن تعطي لهذه الاغلبية وزنها وثقلها .

وكان جمال عبد الناصر يرى ان اجراء اي انتخابات قبل اجراء تغييرات اجتماعية اقتصادية تعطي الاغلبية وزنها وثقلها الاجتماعي والاقتصادي لن يكون من شأنه الا أن يعيد الى السلطة نفس العناصر القديمة التي تمثل الطبقة المتميزة في مصر والتي تسيطر على الحقائق الاجتماعية الاقتصادية فيها ، وهذا يصبح بمثابة العودة الى ديكتاتورية الاقلية الطبقية تحت اسم الديمقراطية .

وكان راي الاستاذ « احمد ابو الفتح » يختلف عن ذلك ، فقد كان يرى أن حل مشكلة الديمقراطية هو باجراء الانتخابات فورا ، وعلى أي حال فقد كان ذلك منطقيا مع موقفه ومع انتمائه الى حزب الوفد .

ثانيها — سبب نفسي ومرجعه فيما اظن الى ان الاستاذ « احمد أبو الفتح » بالغ — ربما بحسن نية — لدى اصدقائه القدامى في اهميته بالنسبة لاصدقائه الجدد ، وبالتالي فقد كان حزبه وكانت جماعته وكانت أسرته تنتظر منه ان يحقق لهم جميعا أشياء عجز عن تحقيقها ، وباحساسه بالحرج فقد تحول خلاف الراي الى عناد ثم الى عداء .

ثالثها — سبب يعود الى ان الاستاذ احمد ابو الفتح كان يشعر بوفاء شديد لاخيه الاستاذ « محمود ابو الفتح » ويعتبره وهذا صحيح « ولي نعمته » — وهذا تعبيره بالحرف لي وقتها — ولكن الاستاذ « محمود ابو الفتح » كان قد ترك الصحافة وجريدة المصري لأحمد ابو الفتح وتفرغ هو تماما لدور رجل الاعمال .

واحس « احمد ابو الفتح » ان اخاه لا يأخذ ما يعتبره هو حقا له وان فرصا كثيرة ضاعت او ضيعت عليه لاسباب لا يعرفها .

ولعل اكثر يوم شعرت فيه بأبعاد ازمة احمد ابو الفتح ، هو يوم اتيح لي ان التقي فيه بالاستاذ « محمود ابو الفتح » في بيروت في شهر يناير من سنة ١٩٥٤ .

كنت عائدا من دمشق عن طريق بيروت ، وفي فندق « سان جورج » التقيت بالاستاذ « محمود ابو الفتح » ووقفنا في ردهة الفندق نتبادل احاديث مجاملات ، ثم سألته عن « أحمد » وكان قد غادر القاهرة الى جنيف ، وقال لي الاستاذ « محمود » — وللرجل مكانته بالنسبة لاي صحفي بوصفه واحدا من الرعيل الاول من بناة الصحافة المصرية الحديثة سواء اتفق او اختلف مع ارائه ومواقفه — انه يريد ان يجلس لحديث طويل معي عن العلاقات بين جمال عبد الناصر « واحمد ابو الفتح » .
وجلسنا نحن الاثنان تلك الليلة في ركن من صالون « السان جورج » نتحدث حتى الساعة الرابعة صباحا .

وبعد ايام من عودتي الى القاهرة كان الاستاذ « محمود ابو الفتح » قد اتصل بالدكتور « السيد ابو النجا » المدير العام للمصري وقتها ، وهو في نفس الوقت موضع ثقة الاسرة كلها ، وطلب اليه أن يتصل بي لكي نرتب « ما اتفقنا » عليه في بيروت .
وكنا قد اتفقنا على ترتيب مقابلة بين جمال عبد الناصر والاستاذ «احمد ابو الفتح».
والتقيت مع الدكتور « السيد ابو النجا » الذي كان وما يزال صديقا مقربا لي وكان يريد أن يستوثق من نقطة واحدة :

— انه سوف يطلب الى الاستاذ « أحمد ابو الفتح » أن يركب الطائرة من جنيف الى القاهرة ، فهل اضمن عودته الى جنيف مهما كانت نتائج مقابلته مع جمال عبد الناصر » ؟ .
وقلت للدكتور « السيد ابو النجا » وهو المشرف العام على «دار المعارف» اليوم:
— انني اتعهد أن اكون في استقبال الاستاذ « احمد ابو الفتح » عند وصوله بالطائرة من جنيف واتعهد أن أكون في وداعه بعد المقابلة على سلم اول طائرة عائدة الى جنيف !. »
وجاء الاستاذ « احمد ابو الفتح » وذهبنا معا الى بيت جمال عبد الناصر وجلسنا نحن الثلاثة لحديث طال اربع ساعات ، وفي الواقع فقد كان الحديث بين الاثنين ، وكنت اتابع ما يدور بينهما صامتا ، اتدخل احيانا عندما تظهر عقدة في حباله !.
لكن الخلاف كان واضحا بين الاثنين في الاراء وفي المواقف .

وارتفعت درجة حرارة الحديث مرتين :
مرة عندما اثار جمال عبد الناصر مسألة الاتصالات التي يقوم بها الاستاذ «محمود ابو الفتح» في « أوروبا » وفي العالم العربي — خصوصا مع « نوري السعيد » رئيس

وزراء « العراق » وقتها ، وكان رد الاستاذ « احمد ابو الفتح » ان علاقات اخيه « بنوري السعيد » هي علاقات رجل اعمال يورد مهمات لمشروعات تنفذ في العراق ، الى جانب اهتمامه بتوريد السلاح كوكيل لبعض شركاته .

وكان راي جمال عبد الناصر — بناء على معلومات لديه بالطبع — ان الصلات والاتصالات فيها عنصر سياسي !.

ثم ارتفعت درجة حرارة الحديث مرة اخرى عندما تساءل الاستاذ «احمد ابوالفتح»:

— لماذا تضار مصالح اخي محمود في مصر ، ولا يحصل على حقه ؟ .

وساله جمال عبد الناصر :

— وهل حدث ذلك ؟ .

ورد الاستاذ « احمد ابو الفتح » قائلا :

— نعم . . . ان اخي تقدملمشروع اتوبيسات النقل في القاهرة ولكن « عبد اللطيف ابو رجيلة » اخذ المشروع ولم يأخذه « محمود ابو الفتح » .

ثم ان « محمود ابو الفتح » تقدم وكيلا عن شركة سلاح يعرض بندقية من عيار ٨٦ وهذه هي البندقية التي اقرت « لحلف الاطلنطي » ، ومعنى ذلك انها ممتازة ، ولكن اللجنة العسكرية التي تشرف على مشتروات السلاح رفضتها ! »

وبدت الدهشة على وجه جمال عبد الناصر وسال :

— وهل تتصور ان لي علاقة بذلك او انني اتدخل في مثل هذه الشؤون ، هذه مسائل تقررها الوزارات المسؤولة . »

وبدا الضيق على ملامح جمال عبد الناصر وشاع الاسف في نبرة صوته وهو يقول بالحرف :

— جرى ايه يا احمد . . اتوبيسات ايه ؟ وبنادق ايه ؟ »

وكان واضحا امامي أن الحديث سار الى طريق مسدود .

وذهبت لوداع الاستاذ « احمد ابو الفتح » طبقا لما تعهدت به ، واقلعت الطائرة التي استقلها الى « جنيف » ورويت تفاصيل ما حدث للدكتور السيد ابو النجا ، وشعوري هو ان القصة لم تتم فصولا !

. . . .

. . . .

وفي الاسابيع التالية بدات اسمع من جمال عبد الناصر اكثر من مرة — وباسف اكثر من غضب — عن النشاط المنسوب الى الاستاذ « محمود ابو الفتح » في « اوروبا » وفي بعض العواصم العربية وبالذات « بغداد » نوري السعيد .

ثم عرفت يوم ٢٧ ابريل ١٩٥٤ ان نشاط الاستاذ «محمود ابو الفتح» احيل الى

« محكمة الثورة » وان قرار الادعاء ضده ينص على :

« انه اتى افعالا ضد سلامة الوطن ومن شانها افساد اداة الحكم وذلك انه في غضون سنة ١٩٥٤ وما قلبها ارتكب الافعال التالية :

١ ـ قام بدعايات واتصالات ضد نظام الحكم القائم بقصد تقويض النشاط القومي للبلاد .

٢ ـ اغرى موظفا عموميا بطرق غير مشروعة على المساهمة في اتمام صفقة تجارية لمصلحته الذاتية .

. . . .

. . . .

وفي يوم ٢ مايو ١٩٥٤ أصدرت محكمة الثورة حكمها وكان الحكم الى جانب السجن والمصادرة ، ينص بالحرف على « سحب رخصة جريدة المصري منه ، وبذلك تعطل الجريدة عن الصدور ابتداء من اليوم » .

. . . .

. . . .

كان تشكيل محكمة الثورة التي حاكمت وحكمت على النحو التالي :

قائد الجناح عبد اللطيف البغدادي رئيسا .

القائمقام أنور السادات عضو يمين .

قائد الجناح حسن ابراهيم عضو يسار .

كان هؤلاء الثلاثة هم القضاة الذين وضعوا أيديهم على المصحف الشريف واقسموا أن يراعوا الله والوطن والضمير في أحكامهم .

ثم عرض الحكم للتصديق على مجلس الثورة ، وكان رئيسه اللواء محمد نجيب وتمت الموافقة عليه .

* * *

ثم .....

ماذا أقول بعد ذلك ؟!.

الحديث الخامس

ولقد شهد انور السادات فى حديث اخير له ان جمال عبد الناصر وقف فى اول يوم من الثورة ضد محاكمة الملك فاروق واعدامه ، وانه وحده بعد ذلك وضد راى كل أعضاء مجلس قيادة الثورة رفض فكرة الديكتاتورية العسكرية وكان غيره يراها وسيلة للاصلاح السريع !

واشهد أن انور السادات قال الحق بذلك ولم يتجن على احد .

واتذكر مثلا قصة الملك فاروق .

أتذكر مثلا جمال عبد الناصر وهو يتحدث الي فى صباح يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ وهو يقول لي بمنطق بسيط :

ـ ما هو معنى ان نحاكم الملك ونعدمه ؟..

اولا اذا كنا قد قررنا سلفا ان نعدمه فلماذا نحاكمه ! .

ويستطرد بعد ذلك ليقول بصوت مشحون بالعاطفة :

ـ اسمعوا ... اني أقول لكم جميعا آن الدم لا يؤدي الا الى مزيد من الدم .

هل قرأت كتاب « تشارلز ديكنز » « قصة مدينتين » ؟ .

علينا ان نتعلم درس الثورة الفرنسية ؟ والا ما فائدة التاريخ ؟ » .

واتذكره وهو يتحدث عن رفضه للديكتاتورية العسكرية ويقول :

ـ لا نستطيع فى نفس واحد ان نتحدث عن « الثورة » و «الديكتاتورية العسكرية» هذا شيء .. وذلك شيء اخر .

الثورة بالشعب والديكتاتورية فوقه ، وعلينا ان نقرر هل نحن مع الشعب او نحن « جماعة تركب على نفسه » وتسيره حيث تريد بصرف النظر عن ارادته ؟ »

ومع ذلك فلا بد ان اسلم ان عصر جمال عبد الناصر اتسم باعتماد اكثر مما يجب على السلطة ، ثم ان فشله الكبير كان التنظيم الشعبي .

ولقد تعرضت لبعض الأسباب فى ذلك مرات سابقة واذا جاز ان الخص اليوم لمجرد التذكرة فاني أقول :

● فيما يتعلق بالدور الزائد للسلطة في عهده فلا بد ان نتذكر ان جمال عبد الناصر عاش عصر الحرب الباردة ، حين كانت اعتبارات الامن الداخلي هي نفسها جبهة الحماية الوطنية .

كانت القوى الكبرى التي تستهدف السيطرة على مقدرات الشعوب الصغيرة تحاول غزوها من الداخل ، وتحاول العدوان عليها بغير وسائل القوة العسكرية المباشرة .

وهكذا كانت الجبهات الداخلية للشعوب ، وليس حدودها الدولية ، هي الجبهات

الاكثر تعرضا للهجوم !.

هكذا اصبحت الصراعات الخفية طابع العصر واصبحت الوسائل السرية من اهم القوى المحركة للحوادث .

ووثائق المخابرات الامريكية المنشورة الان تاكيد لهذه الحقيقة .

وتصاعد دور اجهزة الامن والمخابرات .

● وفيما يتعلق بالتنظيم الشعبي فان بعض العذر مرده الى ان القوى التي بدأت الثورة والسلطة فى الانتقال اليها لم تكن على استعداد للانتقال بسرعة من العجز الكامل الى القدرة الكاملة وكان لا بد ان تمر مرحلة انتقال تنمو فيها وتتمركز مواقع العمل الجماهيري المنظم .

واتذكر مرة كنت فيها معه فى سيارة يقودها على طريق « برج العرب » في الصحراء الغربية .

وتوقف عند جماعة من عمال التراحيل يعملون فى اصلاح جانب من الطريق ، ونزل اليهم ووقف وسطهم ، وراح يتحدث معهم .

وحين عدنا الى السيارة وادار مفتاحها وانطلق بها على الطريق وجدته يهز رأسه ويقول :

ــ مثل هؤلاء هم الاغلبية فى مصر .. وهم التحدي الحقيقي فى مصر ..

لا تتصور ان مشكلة مصر هناك فى واجهة القاهرة الحديثة .. كل ما هنالك فى هذه الواجهة قشرة ... » .

ثم استطرد :

ــ الكارثة ان هؤلاء الذين نريد ان نعمل من اجلهم لا يصل اليهم صوتنا .

لا يقرأون جريدة ، ولا يملكون راديو او تلفزيون .

كيف الوصول الى هؤلاء وتحريكهم ..؟ لا أعرف ؟! »

وطال صمته بعدها .

والمشكلة حتى عند الذين يصل اليهم ، انه كان يلغي بقوة شخصيته وبالثقة الجماهيرية فيه دور التنظيم الشعبي لانه كان يتجاوزه ... تعود الناس ان ينتظروا كلمته ، ويستجيبوا بالحركة معها ، ويجد التنظيم نفسه معزولا خارج دائرة الاتصال المباشر بين الزعامة الاسطورية وجماهيرها !

***

ومع ذلك فهل كان التجاوز فى الاعتماد على السلطة الى هذا الحد الذي يقولون عنه اليوم فى مصر ويصفونه بالكلمة وبالصورة ؟!.

أشهد أمانة على ان ذلك ليس صحيحا ولكن الحملة الموجهة الى شعب مصر الان تركز وتركز حتى لا يستطيع احد ان يفتح فمه قبل ان يبرىء نفسه من اي مسؤولية ويبدأ بادانة التجاوزات كلها جملة وتفصيلا ثم يروح بعد ذلك ــ اذا شاء ــ فيدافع عن الحقيقة على استحياء ، وذلك فى حد ذاته يثبت فى الاذهان ان الاتهام اصيل وان الدفع فرعي .

واعتقد ان السكوت على ذلك نوع من القبول بالتشهير واذا كنت لا اقبل لنفسي ان اسكت ازاءه ــ فانه يشجعني ان السجل فيما يتعلق بي واضح ومعروف . لقد تصديت لتجاوزات السلطة فى وقتها ، ولم الزم السكوت حتى اليوم لاتكلم ، وكانت لي سلسلة مقالات فى حياة جمال عبد الناصر نقدت فيها دور اجهزة الامن تحت عنوان :

« زوار الفجر » وكان ذلك تعبيري الذي شاع وابتذل فيما بعد !.

ووقعت فى مشاكل عويصة حينما انتقدت كتابة ما تعرض له بعض المعتقلين من الاخوان المسلمين فى السجن سنة ١٩٦٥ ، واتصل بي جمال عبد الناصر يقول لـي « انني كنت قاسياً فيما كتبت وان شمس الدين بدران الذي كان يشرف على تحقيقات الاخوان المسلمين وقتها غضب وقدم استقالته » .

واستطرد عبد الناصر يقول :

ـ ان شمس الدين بدران يقوم بدور كبير فى النظام ، وقد ضايقه ان تهاجمه بهذا الشكل ، وقد كلفت عبد الحكيم عامر بأن يدعوكما انتما الاثنين اليوم لتسوية المشكلة » .

وكتبت والححت على صفحات الاهرام وعلى شاشات التلفزيون ادعو والح فى الدعوة الى مجتمع مفتوح يسود فيه القانون ويعرف كل مواطن حدود المسموح به له والمحظور عليه سلفا حتى لا تنقض عليه المفاجآت من المجهول .

أقول ذلك اليوم لا لاتباهى به ولكن لكي يكون واضحا ان الذين سكتوا ـ حتى جاء الموت ـ ازاء قضية الحرية في مصر لا يحق لهم أن يزايدوا على الذين لم يسكتوا من قبل أن يجيء الموت !!

* * *

ومع ذلك فكيف نبحث عن الحقيقة ؟.

كيف نعرف انها كانت كما يصفون ، أو أكثر مما يصفون او اقل مما يصفون ؟

السبيل الوحيد ، وقد ناديت به على هذه الصفحات فى شهر يوليو الماضي أن يكون هناك تحقيق فى كل الحالات التي حدث فيها تجاوز للسلطة .

تحقيق في ظروفها ، وفي وقائعها ، وفي تفاصيلها ، يمسك بها جميعا واحدة واحدة ويستجلي فيها وجه الحق وينصف كل مظلوم ويحاسب كل ظالم .

اليس ذلك اجدى ؟..

اليس هو أجدى من اطلاق الاوصاف والنعوت شائعة ، ومن اطلاق التهـم معممة ، ومن اطلاق الاحكام بغير حيثيات وبغير فرصة لنقضها ؟

اليس ذلك أجدى ؟.

ثم اليس هو الحق ؟!

* * *

ولقد سئلت كثيرا فى مصر :

ـ هل كان جمال عبد الناصر يعرف او ان هذا كله كان خافيا عليه ؟.

وكنت اقول :

ـ قبل ان نستعمل تعبير « هذا كله » اليس واجبا علينا اولا تحديد وتوصيف « كله كلـه » ؟!

ثم كنت أقـول :

ـ « نعم لقد حدثت تجاوزات .

نعم لقد وصل عدد المعتقلين فى مصر فى وقت من الاوقات الى قرابـة خمسة آلاف معتقـل .

نعم لقد فصل بعض الناس من عملهم بقرارات صدرت .

نعم لقد عذب بعض الناس فى سجون مصر .

نعم حدث ذلـك .

ولست واحداً من الذين يرضون الدفاع عن ذلك بالقول مثلا : خمسة آلاف فى وقت من الاوقات ... لقد وصل عدد المعتقلين فى الهند — مثلا — فى وقت من الاوقات الى اربعمائة الف !.

ولست واحداً من الذين يرضون الدفاع عن ذلك بالقول مثلا : لقد فتحوا الباب فصلوا بقرارات — لم يزيدوا عن مائة !

ومع ذلك فان عدد كل قضايا التعويض عن التعذيب لم تزد على ثلاثمائة قضية منهـا ثلاث عشرة فى المخابرات معظمها فى قضايا جاسوسية !

ولست واحداً من الذين يرضون الدفاع عن ذلك بالقول مثلا : كم كان عدد الذين فصلوا بقرارات ، لم يزيدوا عن مائة !

ثم انني لست واحدا من الذين يرضون بالدفاع عن ذلك فى جملته بالقول مثلا : لقد كان حجم ذلك كله — مع عدم موافقتنا عليه — هينا اذا اخذت فى الحساب فترة عشرين سنة حافلة بالتغييرات الاجتماعية والاقتصادية .

ان بعض العنف كان حتميا — مهما كان مكروها — خصوصا فى عملية استرداد ثروات ضخمة بالاصلاح الزراعي أو بالتأميم . هذه كلها عمليات لا يمكـن تحقيقهـا بالاقناع والاقتناع الديمقراطي .

ذلك كله لست على استعداد لقبوله على علاته .

اعتقال انسان واحد من غير حق ، وتعذيب انسان واحد مهما كانت الظروف بينما هو في قبضة سلطة الدولة ، وحرمان انسان واحد من عمله بغير تحقيق — اشياء كلها كئيبة ، وكلها مرفوضة ، وكلها يجب أن تكون موضع حساب .

موضع حساب ، يجري بعد تحقيق !

* * *

هل كان جمال عبد الناصر يعرف ؟.

وردي هو : نعم عرف فى بعض المرات ، وسوف أروي نماذج لذلك فى حـدود ما رأته عينـاي !.

وقبل أن أدخل فى تفاصيل أية وقائع فلا بد أن نتفق على شيء .

ذلك هو ان جمال عبد الناصر كان انسانا طبيعيا ، لا هو مجنون « كنيرون » الذي حرق « روما » وراح يغني على أطلالها ، ولا هو مثلا بطـل قصة « دراكيـولا » مصاص دمـاء !

ثم انه كان انسانا يكره العنف والتسلط ، وتلك شهادة انور السادات فيه سواء فى قصة الملك فاروق او فى قصة الديكتاتورية العسكرية .

ثم انه كان انسانا يعرف حدود السلطات التي تمسك بها يداه ويستشعـر مسئوليته بها ، وكثيرا ما سمعته يقول :

— لا اتخذ قرارا اذا انفعلت ... اذا احسست بذلك فانني انام الليل علـى قراري ، ذلك انه بمثل السلطات التي لدي فانني لا املك ولا احتمل أن اتصرف بانفعال»

ما هو معنى ذلك كلـه ؟

معناه أنه يجب ان نفترض ان جمال عبد الناصر اذا أشار بتصرف أو سكت على تصرف فانه يفعل ذلك بناء على معلومات حقيقية لديه أو معلومات يتصور أنهـا حقيقية لديـه .

انتقل بعد ذلك الى الوقائع .

أبدأ بمسالة الاعتقالات .

اتذكر انني فى صيف ١٩٦٥ وهي الفترة التي وصل فيها عدد المعتقلين الى قرابة خمسة آلاف ـــ انني ذهبت الى جمال عبد الناصر اقول له :

ـــ ان معلوماتنا فى الاهرام تقول ان عدد المعتقلين خلال الشهر الاخير قد زاد على خمسمائة معتقل ...

وكان رده :

ـــ لقد وصلوا الان الى سبعمائة مع الاسف ، وأنا أعرف ، ولكن ماذا أفعل ؟

لقد كان بين خطط التنظيم السري الذي قبض على قيادته خطط بنسف كباري وجسور والقيام بعملية اغتيالات بالجملة .

ولقد وافقت على اعتقالات واسعة أخذا بالاحوط لانى لا استطيع ان أقبل بنسف كباري أو جسور ، ثم أن ((البلد)) لا يستطيع في هذه الظروف أن يتحمل احتكام بعض الناس الى المسدس يغتالون به من يخالفوهم فى الرأي ..))

ولاحظ هو ترددي وكان قوله :

ـــ مشكلتي أنني لا أستطيع أن أتردد :

أنت كصحفي تستطيع ان تفكر من اليوم الى الابد .

ولكن مسئوليتي عن ((البلد)) تحتم علي أن أفكر حتى لحظة معينة ثم أقرر واتحمل المسئولية)) .

***

وفى موضوع الفصل بقرارات أتذكر أنني ذهبت اليه فى حادثتين تصادف انني أعرف أبطالهما ، ومع أنني كنت اوثر اغفال الاسماء منعا لاي حرج فأني أجازف وأحدد الاسماء حتى أقطع الشك باليقين .

أتذكر أنني ذهبت اليه مرة بعد احالة السفير ((حسين عزيز)) الذي كان وكيلا لوزارة الخارجية الى المعاش بقرار مفاجىء .

وكنت واحدا من المعجبين ((بحسين عزيز)) اراه سفيرا قديرا شديد الجلد على العمل .

وقلت لجمال عبد الناصر :

ـــ اليس غريبا ان يحال رجل مثل حسين عزيز على المعاش بغير سبب ؟!

وفوجئت به يقول :

ـــ لقد وافقت على القرار وكان له سببه .))

وكان السبب رسالة من ((جواهر لال نهرو)) رئيس وزراء الهند وقتها يقول فيها انه قرأ تقريرا لسفير الهند فى القاهرة عن مقابلة له مع وكيل وزارة الخارجية المصرية ورأى ان وكيل الخارجية المصرية فى حديثه مع سفير الهند ابدى اراءا متعارضة مع سياسة مصر كما يفهمها هو .. بل أن وكيل الخارجية كان قاسيا فى نقده لخطوط السياسة المصرية وكان في حديثه يعرض بها صراحة .

وكان رأي ((نهرو)) ان مصر لا بد أن تتحدث بصوت واحد ، وانه لا يهمه ان ذلك الحديث كان مع سفير الهند وهو سفير دولة صديقة ولكنه يخشى من مثل ذلك مع سفراء دول أخرى ليست صديقة وليست متفهمة للسياسة المصرية .

وقال لي جمال عبد الناصر بعدها :

ـــ اذا كان لديه اعتراض على السياسة المصرية فقد كان يجب ان يتحدث فى ذلك

مع وزيره الدكتور محمود فوزي . واذا لم يقتنع بها بعد حديثه مع الدكتور فوزي فلقد كان عليه ان يطلب نقله من منصبه او يستقيل .

اما ان يرسم بنفسه سياسة تختلف عن سياسة الحكومة وينتقدها مع سفير اجنبي فهذا ما لا يمكن قبوله » .

وبصرف النظر عن الصواب والخطأ فقد كان ذلك هو الجو الذي تصرف فيه والمنطق الذي تصرف منه ، والغريب أن « حسين عزيز » فى عهد جمال عبد الناصر لجا الى مجلس الدولة وصدر له حكم باعادته الى الخدمة ولم يكن فى استطاعة الحكومة ان تقدم السبب الحقيقي لمجلس الدولة لان ذلك كان من شأنه افشاء اسرار مراسلات بين عبد الناصر و « نهرو » !

واما الحادثة الثانية فقد كان بطلها السيد « احمد ابو العلا » نائب محافظ البنك المركزي وقد صدر هو الاخر قرار باحالته على المعاش .

وكنت اعتبر « احمد ابو العلا » واحدا من اذكى الاقتصاديين فى مصر وكانت دهشتي شديدة لقرار احالته على المعاش ومرة اخرى فتحت موضوعه مع جمال عبد الناصر .

كان يعرف بالقرار وكان قد وافق عليه .

والسبب ان احد المسئولين فى السفارة البريطانية كان موضوعا تحت الرقابة لاسباب معينة .

وذات مرة فى سجلات المراقبة عليه وردت تفاصيل مكالمة تليفونية له مع « احمد ابو العلا » ، وخلال الحديث بينهما على التليفون قال المسئول البريطاني :

ـــ ان معلوماتنا ان حالتكم الاقتصادية سيئة .. معلوماتنا ان ارصدتكم من النقد الاجنبي لم تعد تزيد الان على عشرة ملايين جنيه» ..

وجاء رد احمد ابو العلا :

ـــ الموقف اسوأ من ذلك .. امامي الان اخر التقارير عن اوضاعنا .. رصيدنا الان لا يزيد عن مليونين وربع » !

وبمعرفتي « باحمد ابو العلا » فلقد تصورت انه شارك فى الحديث كله بحسن نية ، وان رده لم يكن افشاء لسر دولة وانما كان نوعا من « الدردشة الاجتماعية » ولكن جمال عبد الناصر كان له رأي اخر .

وسواء اتفقت او اختلفت معه فقد كان ذلك هو الجو الذي تصرف فيه ، والمنطق الذي تصرف منه .

* * *

اصل الى موضوع التعذيب .

اتذكر انني كنت اول من ذهب الى جمال عبد الناصر بقصة ما حدث للدكتور « شهدي عطية » فى احد السجون المصرية فقد ضربه احد سجانيه بقدمه ، وجاءت الضربة فى موضع ادى الى وفاته .

وكان « شهدي عطية » من اصدق واخلص اقطاب الحركة الشيوعية فى مصر .

واشهد ان ثورة جمال عبد الناصر على ما سمع مني كانت ثورة عارمة .

رفع التليفون واتصل بوزير الداخلية وقتها وروى له ما سمع مني ثم اضاف بالحرف تقريبا :

ـــ اذا كان ذلك يمكن ان يحدث فى عهد الثورة فالاشرف والله ان « نفضها »

ونعود الى بيوتنا .. والله يصبح عهد الملك فاروق أحسن » .
وطلب جمال عبد الناصر تحقيقا وطلب حسابا .
وكان مدير مصلحة السجون نفسه أول الضحايا ، فقد أحيل الى المعاش بعد ثلاثة ايام .
وأتذكر ان الدكتور « عبد المنعم الشرقاوي » جاءني بقصة ما حدث له اثناء اعتقاله ، واتصلت بجمال عبد الناصر أروي له ما سمعت واقول بعده :
ــ انني انوي نشر القصة ، فمثل ذلك لا يجوز السكوت عليه . »
وقال جمال عبد الناصر على الفور :
ــ بيدك الحق .. انشر حتى يعرف هؤلاء جميعا أنه ليست هناك حماية لاحد فوق القانون » .
أروي هذه الوقائع كلها واتذكر واقعة واحدة تشملها جميعا .

* * *

اتذكر ان الاستاذ توفيق الحكيم جاءني ذات يوم بقصة كتبها تحت عنوان « بنك القلق » ، وقال لي الاستاذ توفيق الحكيم وهو يسلمني القصة :
ــ ليست قصة للنشر .. ولكن لتقراها فقط » .
وقرأت القصة وكانت نقدا شديدا لكل اوضاع تجاوز السلطة .. المخابرات والاعتقالات .. والحراسات ، الى آخره .
وقررت أن انشر .
وصدر الفصل الاول من القصة فعلا وقامت القيامة .
واتصل بي جمال عبد الناصر يقول لي أنه لم يقرأ ما نشرناه من قصة الاستاذ « توفيق الحكيم » ويطلب عند ذهابي اليه نسخة مما نشر لكي يقرأها لان كثيرين احتجوا لديه على نشرها .
وذهبت اليه بما نشرناه وكان عبد الحكيم عامر معه ، ولم اكد ادخل حيث كانا يجلسان حتى راح عبد الحكيم عامر يهاجم نشر القصة ويطلب وقف بقية فصولها « لانهم جميعا يعتبرونها تعريضا بهم » .

وذكر اسماء رجال اقوياء على قمة أجهزة الامن وقتها .
وامسك جمال عبد الناصر بفصل القصة المنشور الذي جئته به معي وقال لعبد الحكيم عامر :
ــ انتظر حتى أقراه » .
وراح يقرأ وعبد الحكيم عامر ينظر الى بين الوقت والاخر ويهز راسه رفضا ، وأنا اهز له راسي ان انتظر .
وفرغ جمال عبد الناصر من قراءته ثم التفت الي يقول :
ــ انها قاسية » !
وقفز عبد الحكيم عامر الى الفرصة يقول :
ــ يجب وقف نشرها ... »
والتفت الى ناحية جمال عبد الناصر فاذا هو يقول بصدق واصالة :
ــ ... أن توفيق الحكيم استطاع فى العهد الملكي ان ينقد المجتمع المصري في كتابه « يوميات نائب فى الارياف » ولا أتصور فى عهد الثورة انه لا يستطيع ان ينقد

ما يراه مستحقا للنقد فى حياتنا » .
ونشرت القصة كاملة .. حلقات بعد حلقات .

* * *

الى أين أصل من هنـــا ؟
أصل لكي أقول نعم حدثت تجاوزات .
ونعم كان هناك جو ومنطق وراء التصرفات .
ونعم كان هناك الخطأ والصواب .
ولكن الطريق السليم لمعرفة الحقيقة هو التحقيق فى كل حالة .. واحدة بعد واحدة
ولست أطلب ذلك انصافا لجمال عبد الناصر .
ولكني أطلبه انصافا للضمير المصري ، لكي لا نحمل الشعب المصري « عقــدة ذنب » كتلك التي تحملها الشعب الالماني حينما سأل نفسه بعد الحرب العالميـــة الثانيـــة قائلا :

ــ واين كنا نحن حينما كان ذلك يجري كله تحت أعلام النازي » .
ان الشعب المصري لا ينبغي تحميله « بعقدة ذنب » تضاف الى اثقاله الا اذا كان مطلوبا كهدف تقييد حركة الشعب المصري « بعقدة ذنب » تصده مستقبلا عن طلب الحرية الاجتماعية لان ثمنها على الحرية السياسية باهظ وفادح !!

الحديث السادس

ويتهم جمال عبد الناصر بين ما يتهم به اليوم فى مصر انه اشعل نيران الصراع الطبقي فى مصر ، واثار الحقد والبغضاء والحسد بين الاغنياء والفقراء ، فلم يصبح هؤلاء آمنين بما رزقهم الله ، ولا اصبح اولئك راضين بالقسمة والنصيب !

ونثير هذه التهمة — ! — سؤالين :

● **هل الصراع الطبقي فى مصر — او فى غير مصر — ظاهرة اخترعها جمال عبد الناصر ولفقها ؟ أم أن الصراع الطبقي باعتراف الدنيا كلها — غربا وشرقا — واحد من أهم عوامل الحركة التاريخية وقانون من قوانينها ؟**

● **وهل كانت مصر — قبل جمال عبد الناصر — آمنة سالمة من تفاعلات الصراع الطبقي كأنها لؤلؤة فى صدفة مغلقة نائمة مع أحلامها فى أعماق البحر بعيدة عن العالم وعن التاريخ ؟! — أم أن الصورة الحقيقية كانت أبعد ما تكون عن هذه اللوحة من لوحات السلام الابدي ؟!**

* * *

الرد على هذين السؤالين : صورة واحدة هي صورة القاهرة المحترقة فى مساء يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ .

كانت العاصمة التي اكل اللهيب قلبها وحوله الى انقاض متداعية ورماد — هي التصوير البشع لحدة الصراع الطبقي فى مصر وضراوته . وبصرف النظر عن الفاعل المجهول الذي اشعل الشرارة الاولى فى هذا الحريق فان الجماهير المحرومة هي التي تولت بعد ذلك تزكية النار وتأجيجها اعلانا لغضبها ورفضها للقسمة والنصيب معتبرة ان الحرمان ليس قدرا خصها الله به ، وانما هو قسر يفرضه عليها القادرون !

ولم يكن حريق القاهرة صورة واحدة ، لم تسبقها صور ولم تلحقها صور فى فيلم تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى مصر الحديثة .

قبلها كانت هناك صور تمهد للمشهد المخيف يوم ٢٦ يناير .

... وقبلها كانت هناك تراكمات فوق تراكمات .

● **النهب الذي حدث للارض الزراعية فى مصر طوال القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين : نهب احتكرته الاسرة المالكة فى البداية ، ثم اباحت نصيبا منه للمرابين الاجانب ، ثم سمحت لطبقة مصرية معينة أن تشاركها فى جزء منه فى ظروف كلها قابلة للطعن محوطة بما يستوجب الريب والشكوك .**

وبعدها كانت هناك صور تتداعى من هذا المشهد وتتواصل بعده .

● قيام اقتصاد تجاري وصناعي ناشىء ومحدود فى مصر — على أساس فائض

مدخرات الملكية الزراعية وفى يد اصحابها ـ وكان هذا الاقتصاد عاجزا بسبب ارتباطه بالمصالح الاجنبية الكبرى خصوصا فى اوروبا وذلك عن طريق البنوك وشركات التأمين والتجارة الخارجية فى الصادرات والواردات وكانت كلها فى يد مجموعات الانجليز والفرنسيين والسويسريين والبلجيك الامر الذي دعا اقتصاديا

بارزا كالدكتور عبد الجليل العمري الذي تولى وزارة المالية بعد الثورة أن يقول فى وصف الحالة : ـ لقد كان الاقتصاد المصري كبقرة ترعى فى ارض مصر ولكن ضروعها كانت كلها تحلب فى خارجها » .

● **تفاقمت الاوضاع الاجتماعية فى ظروف الحرب العالمية الثانية وذلك بأرباح السوق السوداء فى يد جماعات من « الشطار » انتهزوا الفرصة السانحة وضاعفوا وسط ظلام الحرب أرباحهم وثرواتهم .**

ثم زادت الحالة تفاقما فى السنتين السابقتين على ثورة ١٩٥٢ لان قيام الحرب الكورية واندفاع الولايات المتحدة الى تكريس مخزون من المواد الاستراتيجية تحسبا لقيام حرب عالمية ـ رفع اسعار القطن وذهبت الارباح كلها الى ايدي السماسرة والمضاربين وشركائهم على قمم السلطة وفى قيادات الاحزاب.

● وعبرت التناقضات الاجتماعية المتزايدة فى حدتها عن نفسها بسنوات من القلق فى مصر امتدت من وسط الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٢ الى منتصف سنة ١٩٥٢ ، وكان القلق شاملا للمدينة وللريف فى مصر طوال عشر سنوات مشدودة ومتوترة .

وفى المدينة تلاحقت حوادث الاغتيال السياسي لرؤساء الوزارات ـ احمد ماهر ومحمود فهمي والنقراشي مثلا ـ وباغتيال الوزراء والشخصيات ـ امين عثمان والشيخ حسن البنا مثلا ـ وباغتيال مسؤولي الامن بل ومسؤولي القانون ـ سليم زكي حكمدار القاهرة والقاضي احمد الخازندار الذي اصدر احكاما في قضايا كان المتهمون فيها من الاخوان المسلمين مثلا ـ وفوق ذلك كانت القنابل تدوي فى دور السينما وفى اماكن السهر واللهو وفى الشوارع تصيب اول عابر سبيل !

وفى الريف كانت النار تحت الرماد وكانت تهب احيانا فيعلو لهيبها حريقا فى قصور كبار الملاك كما حدث فى قصر البدراوي فى « بهوت » ، وكما حدث فى دائرة الامير محمد علي ولي العهد فى ذلك الوقت ـ على سبيل المثال .

● **ثم كانت مذبحة البوليس فى الاسماعيلية قبل أيام من حريق القاهرة ـ ماساة حزينة تكشف عجز النظام المصري كله عن ادارة الصراع الوطني سواء على الناحية السياسية او على الناحية الاجتماعية ، وسقط صولجان السلطة على الارض متهالكا مهزوما .**

واشتعلت عاصمة الدولة واستبيح قلبها المحترق لكل من يريد ان يخطف غنيمة من وسط الركام !

* * *

... وبعد الحريق تداعت الصور .

لم تعد المشاهد المتلاحقة تستغرق السنين وانما اصبح الحساب بالايام

وبالساعات ، كأنه سباق زادت سرعة المشتركين فيه بقرب نهاية الشوط ، يحس بها الجميع وان لم يستطع أحد منهم أن يحدد متى تجيء لحظة الحقيقة ، لكن الكتابة ــ كما يقولون ــ كانت على كل الجدران !

● أعلنت حكومة الوفد فرض الاحكام العرفية مساء يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ وبعد ساعة واحدة تلقى رئيسها مصطفى النحاس خطاب اقالته بتوقيع الملك فاروق .

● وتشكلت وزارة برئاسة علي ماهر لكنه شهر واحد ثم سقطت الوزارة .

● وكلف نجيب الهلالي بتشكيل وزارة جديدة أعلن قيامها على أساس التطهير اولا ثم التحرير ، وبدأ يحقق في فضائح المضاربات على القطن وبدأ يطالب احمد عبود باشا بضرائب متأخرة عليه بلغت قيمتها ١١ مليون جنيه أوشكت أن تسقط عنه بالتقادم بعد شهر واحد اذا لم يدفعها فعلا او لم يطالب امام المحكمة بدفعها ، واختصر أحمد عبود طريقه فدفع للملك فاروق مليون دولار في سويسرا لكي يخرج نجيب الهلالي قبل أن يستوفيه حق الدولة او يطالبه أمام المحاكم به فيحفظ بذلك الحق ان يسقط بالتقادم خمس سنوات .

وسقطت وزارة نجيب الهلالي قبل ان تقترب من التطهير او من التحرير .

● وجيء بحسين سري وهو عضو دائم في مجالس ادارات شركات احمد عبود لرأس الوزارة ولكن الغليان المكتوم كان يرج المسرح السياسي رجا وكانت المدافع الرشاشة ما زالت تدوي في أجواء القاهرة والقنابل تنفجر على أرصفتها ، وكانت دقات النبض السياسي للجيش تبدو مسموعة من خلال انتخابات مجلس ادارة نادي الضباط حيث سقط كل مرشحي القصر ونجح آخرون بعد ان ساندهم تنظيم سري في صفوفه صدرت عنه قبل ذلك وخلاله منشورات باسم « الضباط الاحرار » .

● وسقطت وزارة حسين سري بحركة ارتجاج المسرح السياسي ذاتها واعيد نجيب الهلالي الى رئاسة الوزارة مرة أخرى يوم ٢١ يوليو ١٩٥٢ .

يوم ٢٣ يوليو قـــامت الثورة .

وجـــاء جمال عبد الناصر .

جاء جمال عبد الناصر والصراع الطبقي في مصر على اشده حريقا ودما .

لم يشعل ناره انن ولم يؤجج ضرامه ، ولا اخترعه من عندياته او لفق مظاهره تلفيقـــا !

بل لعلي اقول ان جمال عبد الناصر فعل عكس ذلك تماما فقد اطفأ الحريق وحقن الدم ــ حين وجد صيغة معقولة للتحول الاجتماعي وكانت مفاتيحها على النحو التالي :

١ ــ لقد ادرك ان الصراع الطبقي قانون من قوانين الحركة الاجتماعية لا يمكن ابطال مفعوله ولا تجميد تفاعلاته وان للفقراء حقوقا لا يستطيع الاغنياء حبسها .

٢ ــ ان مخاطر الصراع الطبقي تزداد بمقدار ما تتزايد وتتسع الفوارق بـين الطبقات ، وفي حالة مصر فان الفجوة شاسعة ، ومن ثم فان الخطر داهم .

٣ ــ هناك مأزق يواجه الشعوب النامية الواقعة تحت سيطـــرة الاستعمار واحتلاله ، وهذا المأزق يتمثل في انها تحتاج الى وحدتها الوطنية الكاملة في مواجهــة الاستعمار الخارجي ، وفي نفس الوقت فان الصراع الطبقي داخلها يقطع ويفصل .

وذلك ما عبر عنه جمال عبد الناصر في فلسفة الثورة في يناير ١٩٥٣ في حديثه عن التصادم بين ضرورات الثورة السياسية ضد الاستعمار وضرورات الثـــورة الاجتماعية ضد الاستغلال ، ولم يكن جمال عبد الناصر ، للانصاف ، أول من اكتشف

هذا التصادم ، فقد سبقه اليه مكرم عبيد فى بيانه عن الميزانية التي قدمها الى مجلس النواب فى ربيع سنة ١٦٥٢ حين مال بدكاء مستنير ونفاذ : « يجب ان نخلص المصري من استعمار الاجنبي ، ثم نخلص المصري من استعمار المصري » .

٤ ــ استطاع جمال عبد الناصر ان يستوعب حقائق عصره ، وأول هذه الحقائق ان الحرب الباردة هي فى صميمها صراع بين كتلتين دوليتين كل منهما مسلحة لا بالقنبلة الذرية وحدها ، ولكن قبل القنبلة بعقيدة اجتماعية معينة .

وبما انه ليس هناك جزء فى العالم يستطيع ان ينسلخ عن الكل خصوصا بثورة التكنولوجيا وبالذات فى مجال المواصلات ــ اذن فان الحرب الباردة لا يمكن صدها عند أية حدود دولية ... انها كظواهر الجو لا تعترف بخطوط الاسلاك الشائكة ولا حتى بحقول الالغــام .

ثم أن الحرب الباردة تسابق على النفوذ ميدانه الارض المفتوحة خارج نطـــاق الكتلتين المعسكرين !

٥ ــ ان ترك الصراع الطبقي الى نهايته سوف يلطخ التراب الوطني بالنـــار والدم وسوف يؤدي لا محالة الى الحرب الاهلية بين الفقراء والاغنياء ، واذا وقعت الحرب الاهلية فى وطن من الاوطان فى هذا العصر الذي تهب فيه رياح الحرب الباردة ، فليس هناك ضمان يحول دون تدويلها ، بواسطة التنافس والتسابق بين معسكرين دوليين وكتلتين عالميتين كل منهما فى الحقيقة عقيدة اجتماعية مسلحة .

ومثل ذلك حدث امام عيون الناس فى اسبانيا .

تفاقمت فيها حدة الصراع الاجتماعي الى حد الحرب الاهلية ، ثم تحولت الحرب الاهلية الى صراع دولي .. سياسي اجتماعي ميدانه اسبانيا .

واشتعلت اسبانيا كلها بالنار ونزفت دمها سنوات بعد سنوات .

وانتقل مصيرها من يد شعبها فأمسكت به موازين دولية خارج ارادته ، ثـم نزل الستار على المأساة الاسبانية بسيطرة قوى الفاشية فيها تعبيرا عن أوضـــاع عالمية لا علاقة للشعب الاسباني بها !

* * *

بهذه المفاتيح فى يده ، وبالتجربة والممارسة ، وبثقة شعبية اسطورية فيــه تاكدت خلال حرب السويس وبانتصارها ــ توصل جمال عبد الناصر الى حل جديد جعل من التجربة المصرية كلها ظاهرة بالغة الاهمية فى التحول الاجتماعي بغير عنف دموي ، وفى التنمية الاجتماعية عن غير الطريق الراسمالي .

استطاع ان يصنع شيئا لا مثيل له فى غير التجربة المصرية ... شيئا اسميناه ــ وما اظننا شططنا ــ « بتاميم الصراع الطبقي » !

كانت عناصر هذه التجربة كما يلي :

١ ــ سلطة وطنية تقدمية .

٢ ــ هذه السلطة تقوم باسترداد كل المصالح الوطنية المنهوبة للاستغـــلال الاجنبي (قناة السويس ــ البنوك ــ شركات التامين ــ التجارة الخارجية ، الى اخره)

٣ ــ تتجه هذه السلطة بعد ذلك الى تصفية مواقع الامتيازات الطبقية التي تراكمت فى ملكية الاراضي الزراعية ، وفى ملكية الشركات الصناعية والتجارية التـي تعيش على الحماية الجمركية وبالاعيب التحايل على القانون ، وفى ملكيـة الاراضي العقاريـــة .

هكذا صدرت قوانين الاصلاح الزراعي وقوانين تاميم البنوك ثم قوانين التأميم

الواسعة في يوليو ١٩٦١ ، ثم لحقت بها قرارات الحراسة وكانت تستهدف اصلا مطاردة الثروات الفادحة التي استطاعت ان تفلت من قوانين الاصلاح الزراعي ومن قوانين التأميم في يوليو ١٩٦١ .

(ولقد اسلم بوجود بعض التجاوز في قرارات فرض الحراسة في مرحلة لاحقة ، خصوصا بعد سنة ١٩٦٧ ، لكن التجاوز شيء يمكن تصحيحه ، واما المبدأ الاصلي فشيء اخر لا يمكن الحكم عليه بغير المنطق الذي صدر عنه) .

٤ — ان السلطة الوطنية التقدمية راحت تندفع بعد ذلك الى عملية تنمية اقتصادية شاملة عن طريق التخطيط في نفس الوقت الذي كانت فيه تدير عملية اعادة توزيع واسعة النطاق تكفل نقل الثروة — القديمة بالتراكم والجديدة بالتنمية — باستمرار من متناول وسيطرة القادرين الى متناول وسيطرة المحرومين ، وذلك عن طريق اتاحة فرص التعليم والعمل لاوسع الجماهير ، ثم عن طريق مظلة الخدمات والتأمينات ، ثم السيطرة على أسعار الغذاء ولو عن طريق الدعم ، والسيطرة على اسعار الاسكان بعديد من الوسائل المتاحة بينها تخفيض الايجارات في المباني القائمة والتدخل لتحديدها بلجان تقدير الايجارات في المباني الجديدة .. الى جانب المشاركة في ادارة عملية الانتاج وفي اقتسام فائض ربحها .

٥ — من هذا التركيب الاقتصادي الاجتماعي الفوار بالحيوية نشأت فكرة التحالف بين قوى الشعب العاملة ، له السيطرة على وسائل الانتاج وله السلطة السياسية التي يدير بها العمل الوطني كله في اتجاه التنمية الشاملة باستمرار وتذويب الفوارق بين الطبقات باستمرار أيضا .

ثم أن هذا التحالف وحده هو الذي يستطيع ان يحمي الاستقلال الوطني ، ويسعى للوحدة العربية ، ويحقق التضامن مع حركة الثورة الوطنية على كل ارض ومع كل شعب .

هذه هي العناصر الاصيلة في التجربة ، وبعدها يجيء السؤال :

— هل نجحت هذه التجربة عمليا .. او هي لم تنجح ؟!

ازعم أنها نجحت ، وسوف أعدد اسباب ذلك في ظني فيما بعد ، ولكني استطرد من هنا الى نقطة متصلة بها مثارة في مصر الان بشأن مستقبل العمل السياسي عن طريق ما أسموه اولا بلجنة المنابر ، ثم عادوا فغيروا اسمه بعد ذلك الى لجنة مستقبل العمل السياسي في مصر ! .

***

يتساءلون في مصر الان :

— منابر داخل الاتحاد الاشتراكي ثابتة ام متحركة ؟

أحزاب أو لا احزاب ؟ »

ننسى الاصل احيانا ونمسك بالشكل .

ننسى ان العمل السياسى في النهاية تعبير عن حقائق اقتصادية اجتماعية بالدرجة الاولى .

ننسى ان الحزب هو في حقيقته طليعة سياسية لطبقة اقتصادية اجتماعية ، ولا يمكن ان يكون شيئا اخر ، لانه لا يجتمع على الهدف الواحد الا اصحاب المصلحة الواحدة .

وننسى أن صيغة التحالف بين قوى الشعب العاملة لا سند لها في الحقيقة

والواقع الا فكرة ادارة الصراع سلميا بين طبقات لا تتفاوت الفوارق بينها الى درجة القطيعه ، ثم انها تسعى عن طريق التنميه واعاده التوزيع — الكفاية والعدل كما كنا نسميها — الى تذويب الفوارق بين الطبقات .

ومن هنا فان الحقيقه الاقتصاديه الاجتماعيه هي التي تصنع التعبير السياسي عن نفسها وليس العكس .

* * *

واخشى ان بعض ما يحدث فى مصر الان سوف يؤدي — اردنا ذلك او رفضناه — الى ظهـــور أحزاب .

وليس ذلك شيئا ادعو اليه كضرورة ... وفى نفس الوقت فليس شيئا أرفضه كمبــــدأ .

ان الاحزاب سوف تظهر لان تأميم الصراع الطبقي يجري فكه الان فى مصر سواء كان ذلك بتخطيط مسبق أو كان فعل مصادفات ساقتنا اليها ملابسات .

لمــــاذا ؟

لان طبقة جديدة تظهر الان فى مصر نتيجة لما نطلق عليه سياسة الانفتاح ، وتكدس بسرعة ثروات هائلة ، وتبني لنفسها مواقع متميزة باستغلال ظروف سانحة !

هذه الطبقة الجديدة مكونة من عنصرين :

● **بقايا من عناصر الطبقة القديمة فى مصر ، وهي ليست العناصر الاصيلة فى تلك الطبقة القديمة ، وانما جماعات كانت تعيش على هامشها وفى خدمتها .**

● **ثم جماعات وافدة جديدة هبطت عليها الثروة من السماء مفاجاة ، وفى الحقيقة فان غنى هذه الجماعات جاءها من مصدرين :**

الاول — هو المضاربة فى الاراضي العقارية التي ارتفع سعرها بشكل فاحش فى مصر نتيجة لعوامل كثيرة .

والمشكلة فى الثروة الناشئة من المضاربة فى الاراضي العقارية انها تصنع غنـــى فادحا لدى بعض الافراد بغير ان تضيف شيئا الى الثروة القومية للمجتمع !

والثاني — هو الاشتغال بعمليات السمسرة والتهريب الظاهر او المستتر وراء الوان من النشاط مشروعة أو تبدو مشروعة وهي فى الحقيقة نوع من « الاباحيـــة الاقتصاديـــة » !

وتقدير الخبراء ان هناك خمسمائة مليونير جديد فى مصر خلال السنتين الاخيرتين — والرقم منقول عن تحقيق لهنري تانر مراسل نيويورك تيمس فى مصر — وتقديـــر الخبراء أيضا أن مائتين من هؤلاء جاءت ثرواتهم من الزيادة فى أسعـــــار الاراضي العقارية ، ثم ان باقي أصحاب الملايين الجدد جاءتهم الثروة عن الطريق الثاني ... طريق الاباحية الاقتصادية !

والطبقة الجديدة تضغط ضغطا فاحشا على الاستهلاك الى حد البذاءة .

والطبقة الجديدة تضغط على القطاع العام كأنها تريد تكسير ضلوعه .

ثم ان الطبقة الجديدة هي القوة الحقيقية وراء الحملة الضاربة على التجربـــة الوطنية التقدمية فى مصر .

تحاول تهديم منجزات عبد الناصر حتى لا يبقى لها ذكر او اثر ، ثم تحاول الفصل بين عهده وعهد انور السادات تتصور بذلك انها تستطيع تطويق مسؤوليته عن قيادة

التجربة ، وأخيرا تحاول تكبيل جماهير الشعب المصري فى « عقدة ذنب » بحجة انها ضيعت وعيها بانقيادها الاعمى لسحر جمال عبد الناصر !

والمشكلة أن الطبقة الجديدة لا يمكن ائتمانها على قضية من قضايا العمل الوطني .

لا هي مؤتمنة على قضية التراب الوطني ، ولا هي مؤتمنة على قضية التحول الاجتماعي .

والطبقة المصرية القديمة الاصيلة — مثلا — كانت فى ظني أقدر منها واشرف على الاقل فى قضية التراب الوطني وأن جاز لنا ان نشك فى امانتها على قضية التحول الاجتماعي .

لماذا ؟

لان تلك الطبقة القديمة كانت تعيش على ملكية الارض الزراعية وكانت الارض الزراعية تمنحها احساسا بالانتماء الى الطين المصري .

اما الطبقة الجديدة فليس لها فى مصر الا انابيب تتسرب منها الثروة وتتدفق أولا بأول خارج مصر .

بل أن هذه الطبقة — فى معظم الاحيان — واجهة او وكالة لمصالح اجنبية تعمل خارج مصر وليس لها هم الا أن « تشفط » ما تستطيع أن تصل اليه فى مصر .

ومع نمو هذه الطبقة وتمركزها فى مواقع الاستغلال والامتياز الطبقي يوما بعد يوم فان بقية الطبقات فى مصر سوف تجد نفسها مضطرة الى الدفاع عن مصالحها ولو اقتضاها الامر ان تخرج من صيغة التحالف التي تصبح فى تلك الحالة قيدا يجمد حركتها وليست اطارا يتسع لها .

واذن ينفك تأميم الصراع الطبقي ...

واذن تعود اليه الحدة والتوتر ...

واذن يزداد الخطر بمقدار ما تتسع الفوارق .

★★★

ويجري اللعب بالكبريت قرب مخزن البارود .

ومع ذلك يتهم جمال عبد الناصر بانه اشعل نيران الصراع الطبقي فى مصر وبانه اثار الحقد والبغضاء والحسد بين الاغنياء والفقراء .

وكان المتنبي هو الذي قالها قبل الف سنة :

— وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا !!

الحديث السابع

وعند الذين يهاجمون جمال عبد الناصر ، بالحق وبالباطل ، ادعاء يوجهونه الى أي حجة تساق لهم ، دليلا وبرهانا ..
يقـــال لهم :

ـ لقد اعاد توزيع الثروة والدخل .

وردهم الجاهز باستمرار :

ـ وزع ، هذا صحيح ... ولكن ماذا وزع ؟

لقد وزع الفقر ، وذهب وخلف وراءه تركة من الخراب كان الله فى عون مـــن آلت اليـــه ؟!

والسؤال الذي اريد ان اتعرض له اليوم هو بالضبط هذا السؤال :

ـ هل وزع جمال عبد الناصر اشتراكية الفقر بدلا من اشتراكية الغنى ـ ! ـ وهل ترك وراءه خرابا لا يصلح الا للبوم والغربان تنوح على اطلاله ؟!
سؤال يستحق ان يجاب عليه .. واحاول .

ولكني قبل ان ان افعل ، التمس العذر مقدما اذا استعملت كثيرا من الارقام . والارقام بطبيعتها جافة رغم أن لها قدرة على البيان لا تضارعها فيها وسيلة أخـــرى من وسائل التعبيـــر .

***

لقد بدأت تجربة التنمية فى عصر عبد الناصر بخطوة تبدو الان مرتجلة ، لكنها فى الحقيقة كانت الخيار الوحيد المطروح امامه وقتها .

كان يشعر باهمية التنمية شعورا غريزيا ، اقصد ذلك الشعور الذي يولـــده الاحساس بالحاجة الى شيء فى اتجاه معين ، دون أن تكون هناك دراسة كاملة لهذا الشيء ، وتحديد دقيق لهذا الاتجاه .

واحس انه اذا انتظر حتى تكتمل الدراسة ، وحتى يتم التحديد الدقيق للاتجاه ،

فان وقتا ثمينا سوف يضيع .

وفى نفس الوقت ، فانه لم يكن يثق فى الجهاز الحكومي الذي ورثته الثورة من العهد الملكـــي .

ومن هذا كله تحرك فى ثلاثة اتجاهات على طريق التنمية :

١ ـــ جاء بالمشروعات التي وردت فى وعود وزارات ما قبل الثورة اثناء خطب العرش ، واعتبر ان هذه المشروعات درست بما فيه الكفاية ، وانشا مجلسا اعلـــى للانتاج خارج اطار الجهاز الحكومي ،وضم فيه مجموعة من ابرز خبراء مصر الاقتصاديين قبل الثورة ، وممن لم تلحق بسمعتهم شوائب ، وجعل على رأسهم حسين فهمي ، وهو اسم من ألمع الاسماء الاقتصادية وقتها ، وكان قد تولى وزارة المالية من قبـــل ، الى جانب اسهامه فى انشاء كثير من المشروعات فى السنوات السابقة .

ووضعت تحت تصرف مجلس الانتاج كل المبالغ التي أمكن توفيرها له ورصدها للتنمية ، ووصلت هذه المبالغ الى اكثر من ألف مليون دولار ، وكان بين أبرز المشروعات التي نفذت باشراف مجلس الانتاج : مصنع حديد حلوان ، ومصنع السماد فى اسوان ، وكهربة خزان اسوان ، وكهربة خط حلوان .. الى اخره .

وفى نفس الوقت ، كان جمال عبد الناصر قد انشأ مجلسا أعلى للخدمات خارج اطار الجهاز الحكومي ايضا ، ووضع على راسه فؤاد جلال ، وطلب ان يحول اليه كل ما صودر من ثروة الملك السابق ومن أملاك الخاصة الملكية ، وقد بلغت قيمتها فى ذلك الوقت سبعين مليون جنيه ، وقد نفذت بها مشروعات الوحدات المجمعـــة للصحة والتعليم ، واعادة التدريب والارشاد الزراعي فى الريف ، الى جانب سلسلة المستشفيات المركزية التي انشئت فى ذلك الوقت .

٢ ـــ بعد هذه الخطوة الاولى فى مجال التنمية ـــ وقد كانت فى مجال رد الفعـــل اكثر منها فى مجال الفعل ـــ بدأ عبد الناصر يفكر فى الطريقة التي يمكن بها وضع خطة كاملة للتنمية الاقتصادية فى مصر .

واقر توصية لمجلس الانتاج فى ذلك الوقت ، بان يعهد الى بيت خبرة امريكي عالمي ، هو بيت « آرثر دوليتل » الشهير ، باجراء مسح شامـــــل لامكانيات مصر الاقتصادية ، وكيف يمكن التخطيط لها تخطيطا شاملا .

وتم ذلك فعلا ، وقامت مجموعة من خبراء « دوليتل » بمهمة استغرقت سنتين كاملتـــين .

٣ ـــ فى نفس الوقت ، فان جمال عبد الناصر كان يدرك اهمية قيام جهـــــاز تخطيط وطني ، ومع انه كان يعتقد ان التخطيط ارقام ، فقد كان يشعر فى نفس الوقت ان التخطيط التزام ايضا .

كان ذلك فى سنوات ١٩٥٣ و ١٩٥٤ و ١٩٥٥ .

وجاءت حرب السويس سنة ١٩٥٦ ، وكانت حرب السويس فى حقيقتها حرب التنمية فى مصر ، فقد كان محورها هو السد العالي ، وكان تاميم قناة السويس هو رد جمال عبد الناصر ، على سحب المساهمة الامريكية البريطانية فى السد العالي ، وعلى احجام البنك الدولي اثر ذلك عن ان يقوم بتمويل المشروع .

وكان السد العالي هو التجسيد العملي لآمال عبد الناصر الطموحة فى التنمية ، وكان بين حجج جون فوستر دالاس ، وزير الخارجية الامريكية ، وهو يسحب المساهمة الامريكية ٨ تمويل السد ، هو ان مصر وشعبها وميزانيتها لا يستطيعا تحمل اعباء مثل هذا الحلم العملاق !

واثناء حرب السويس ، وبعدها ، اضاف جمال عبد الناصر الى امكانيات ووسائل التنمية عنصرين جديدين :

١ ــ قناة السويس وقيمتها الاقتصادية ودخلها .

٢ ــ مجموعة البنوك وشركات التامين والتجارة الخارجية ، التي كانت مملوكة للانجليز والفرنسيين والبلجيك ، وقد وضعت هذه المصالح تحت الحراسة فى ظروف الحرب اولا ، ثم صدر قرار بتمصيرها ثانيا ، ثم تغير التمصير الى التاميم ثالثا ، وكانت تلك اول نواة لقطاع عام يقوم بدور طليعي فى عملية التنمية .

★★★

ومع بداية سنة ١٩٥٧ ،كانت الفرصة قد اصبحت متاحة للتخطيط المدروس والشامل ، وبدأ العمل ، واستمر حتى سنة ١٩٦٧ . . عشر سنوات كاملة بغير انقطاع. عشر سنوات تحملت فيها مصر ضغوطا اقتصاديا ونفسية بغير حدود .

وتحملت فيها مصر مسؤوليات عربية استوجبها دورها القومي .

ومع ذلك فان هذا كله لم يوقف اندفاعها نحو التنمية ، ولم يؤثر فى النتائج الباهرة التي حققتها .

طوال هذه السنوات العشر كانت نسبة النمو الاقتصادي فى مصر تسير بمعدل ٦٪ سنويا بالاسعار الثابتة الحقيقية .

بل ان هذه النسبة ارتفعت فى وسط الفترة ، اي من سنة ١٩٦٠ الى سنة ١٩٦٥ ، الى معدل ٦،٦٪ .

ومصدر هذا الرقم تقرير البنك الدولي رقم ٨٧٠ ــ ١ عن مصر ، الصادر في واشنطن بتاريخ ٥ يناير ١٩٧٦ (اي مطلع هذه السنة التي نحن فيها الان) .

هل يحتمل هذا المصدر اي شك ؟
هل اصبح البنك الدولي متواطئا مع عبد الناصر ؟
وما الذي يعنيه هذا الرقم ؟

يعني آن مصر استطاعت فى عشر سنوات من عصر عبد الناصر ان تقوم بتنمية تماثل أربعة اضعاف ما استطاعت تحقيقه فى الاربعين سنة السابقة على عصر عبد الناصر .

كانت تلك نتيجة لا مثيل لها فى العالم النامي كله ، حيث لم يزد معدل التنمية السنوي فى اكثر بلدانه المستقلة خلال تلك الفترة عن اثنين ونصف فى المائة .
بل ان هذه النسبة كان يعز مثيلها فى العالم المتقدم ، باستثناء اليابان والمانيا الغربية ومجموعة الدول الشيوعية .

★★★

وجاءت سنة ١٩٦٧ . وكانت الصدمة الكبرى ، ولكن تجربة التنمية المصرية كانت قادرة على تحمل اعباء الصمود .

ولكي يكون الكلام محددا ، فان الاقتصاد المصري تحمل بعد سنة ١٩٦٧ بالمهام الاربع التالية :

١ ــ تحمل هذا الاقتصاد عبء اعادة بناء القوات المسلحة (ولا اخوض فى تكاليف هذا العبء حتى لا اقع فى محظور السرية الواجبة) .

٢ ــ تحمل هذا الاقتصاد باتمام بناء السد العالي ، ولم يكتمل بناء هذا السد ، كما نتذكر ، الا سنة ١٩٧٠ ، حين وقف جمال عبد الناصر فى اخر احتفال حضره لعيد الثورة فى ٢٣ يوليو من تلك السنة يستهل خطابه التقليدي للامه برسالة جاءته من وزير السد العالي يعلنه بأن بناء السد قد تم ، وبان بناة السد على استعداد لتحمل مسؤوليات أية مشروعات كبرى غيره يكلفون بها .

(من المحزن ان صور جمال عبد الناصر نزع معظمها اخيرا من منشآت السد العالي في اسوان ، وقيل في تبرير ذلك ان شاه ايران كان يريد زيارة السد ، ولان العلاقات بينه وبين جمال عبد الناصر لم تكن على ما يرام ، فقد رؤي رفع معظم الصور حتى لا تؤذي عينيه اذا وقعتا عليها . واعتقادي ان ذلك خطأ حتى فى تقدير مزاج الشاه ، وأظنه لو عرف بما حدث لابدى اعتراضه عليه ، فان الشاه رغم خلافه مع جمال عبد الناصر ، يعترف له بدوره التاريخي الكبير) .

٣ ــ تحمل هذا الاقتصاد باعباء مشروعات جديدة ضخمة ، ابرزها مشروع مجمع الحديد والصلب ، وقد وصفه الرئيس السادات بانه مشروع « لا يقل ضخامة عن مشروع السد العالي » ، ثم انه من القواعد الاساسية لصرح الصناعات الثقيلة فى مصر .

٤ — تحمل هذا الاقتصاد ، فوق ذلك كله ، بعبء تثبت اسعار السلع الاستهلاكية ، فبقيت الحياة محتملة بالنسبة للسواد الاعظم من الجماهير .

كانت تلك شبه معجزة تحملها الاقتصاد المصري ، ولم تكن المعجزة من صنع المصادفات أو عفاريت الجن ، وانما كانت من صنع طاقة انتاجية متماسكة قادرة على تحمل صدمة فاجأتها على غير انتظار .

وتبدو قيمة هذه المعجزة في الصمود اذا تذكرنا ان مصر في ذلك الوقت لم تكن تحصل من الدعم العربي الا ما نصت عليه اتفاقية الخرطوم سنة ١٩٦٧ ، وكان في حدود مائة مليون جنيه كل سنة ، تكاد توازي تماما ما فقدته مصر باغلاق قناة السويس وضياع دخلها .

واسأل بانصاف :

— هل هذه صورة اقتصاد تركه جمال عبد الناصر خرابا تنعق فيه البوم والغربان ، أم انه على العكس من ذلك ، اقتصاد استطاع الاستجابة للتحديات ؟

ولربما رد البعض ، وردهم متوقع :

— والديون .. نسيت الديون !؟

ليكن ، ولنتوقف لحظة امام حديث الديون .

تقول الارقام :

سنة ١٩٧٠ (سنة رحيل عبد الناصر) كان مجموع الديون التي تتحملها مصر هي أربعة آلاف مليون دولار ، هي مجموع الدين المدني والعسكري ، وكان معظمها للاتحاد السوفيتي ، على اقساط ممتدة ، وبسعر فائدة قدره ٢ر٥ بالمئة .

وكان الدين المرهق هو الدين القصير الاجل ، وهو قروض بتسهيلات مصرفية ولموردين في حدود مائة وثمانين يوما والفوائد عليها عالية ، ما بين ١٠ الى ١٤ في المائة . كان حجم هذا الدين هو ١٠٤ مليون جنيه .

هذه هي صورة الديون ، فكيف يمكن ان نضعها في اطارها الحقيقي .

الدين الخارجي الرئيسي ، وهو أربعة آلاف مليون دولار مثلا ، يوازي ربع مثيله الاسرائيلي مثلا ، مع التباين الهائل في عدد السكان (٣٦ مليونا في مصر وثلاثة ملايين في اسرائيل) وفي قياس اخر فهو يمثل نصف الدين التركي !

واذا ما تذكرنا ان معظم الديون كانت في الحقيقة لتمويل مشروعات انتاج لوجدنا ان الصورة ليست مخيفة .

ولكن اكثر ما كان يزعج جمال عبد الناصر هو الدين القصير الاجل ، معظمه استهلاكي ،وا ستحقاقاته قريبة ، وفوائده عالية .

كان حجم هذا الدين ، كما قلنا ، ١٠٤ مليون جنيه سنة ١٩٧٠ .

وكيف يمكن ان نضع هذا الدين فى اطاره الحقيقي ، عن طريق المقارنة والقياس .
ماذا لو اجرينا المقارنة والقياس على حجم هذا النوع من الدين سنة ١٩٧٥ ؟!
تقول الارقام ان هذا النوع من الديون القصيرة الاجل على مصر وصل فى شهر يناير سنة ١٩٧٥ الى ١٠٠٤ مليون جنيه .

اي انه من سنة ١٩٧٠ الى سنة ١٩٧٥ زاد عشر مرات .

يبقى ان اقول ان مصدر هذه الارقام تقرير رسمي للبنك المركزي المصري قدمه الى البنك الدولي ، وورد فى تقرير البنك الدولي رقم ٨٧٠ــ١ عن مصر ، الصادر فى ٥ يناير ١٩٧٦ (بداية هذه السنة !) .

***

واسأل :
ــ هل انا فى حاجة الى ارقام أخرى لكي اقول ــ وبمنتهى الهدوء ــ ان عبد الناصر لم يترك حين رحيله خرابة تنعي الغربان والبوم اطلالها ؟

ومع ذلك ، اسوق هذه الارقام المقارنة فى عدد من المجالات الهامة .

● فى مجال الادخار الوطني والتنمية :

سنة ١٩٧٠ (سنة رحيل عبد الناصر) كان الاستهلاك العام والخاص فى مصر بنسبة ٩٠ بالمائة ــ وكانت المدخرات الوطنية المتاحة من الداخل للتنمية بنسبة ١٠ بالمائة من الدخل القومي .

سنة ١٩٧٥ وصل الاستهلاك العام والخاص الى نسبة ٥ر١٠١ بالمائة اي ان الاستهلاك زاد على الدخل القومي كله بواحد ونصف فى المائة ــ اي ان مصر اصبحت تأكل من راسمالها .

● فى مجال التضخم :

سنة ١٩٧٠ (سنة رحيل عبد الناصر) كانت نسبة التضخم السنوي فى مصر فى حدود ٥ بالمائة سنويا .
سنة ١٩٧٥ ، كانت نسبة التضخم السنوي فى مصر ما بين ٢٠ الى ٢٥ فى المائة .

● **فى مجال الدعم العربي لمصر :**

سنة ١٩٧٠ (سنة رحيل عبد الناصر) لم تكن هناك غير اتفاقية الخرطوم .
سنة ١٩٧٥ ، قدمت الدول العربية ، علاوة على اتفاقية الخرطوم ، وزيادة عليها، ما يكاد يصل الى الفي مليون دولار .

واذا أردت آن أكون منصفا لكل آلاطرآف ، فاني أقول :

ــ ان عبد الناصر لم يترك خرابا ينعق البوم والغربان على اطلاله ، وانما ترك اقتصادا قادرا علي الاستجابة ، وبالتأكيد فلقد كانت لهذا الاقتصاد مشاكله ، ولكن معظمها كان مشاكل نمو ، الى جانب مشاكل خلط فى الاولويات ، وقصور ادارة .

ولكن الصورة العامة لم يكن فيها ما يدعو الى التشاؤم ، وانما كان فيها ما يستدعي التطوير والتحديث ، خصوصا فى الادارة .

والصورة آلتي نراها الان ــ بارقام سنة ١٩٧٥ ــ تبدو مزعجة ، ولكن الاعذار يمكن ان تساق لها من عوامل كثيرة ، بعضها خارج عن الارادة مثل ارتفاع اسعار المواد الغذائية الذي جعل الدعم الحكومي لهذه السلع يرتفع من ٨٠ مليون جنيه سنة ١٩٧٠ ، الى ٦٥٠ مليون جنيه سنة ١٩٧٥ ، ثم الى زيادة نسبة التضخم العالمي ، ثم الى القفزة الهائلة فى اسعار الوقود .

نستطيع هنا ــ ١٩٧٥ ــ ان نجد مبررات واعذارا .

ولكننا لا نستطيع ــ بالانصاف ــ ان نقول انه من هناك ــ سنة ١٩٧٠ ــ بدات المشكلة حين ورثنا خرابا ينعق البوم والغربان على اطلالها !

ليس ذلــك صحيحا .

ثم انــه ليس امينا !

ويقال ان الحل هو «الانفتاح » وتشجيع رأس المال الخاص على استثمار امواله ، والتوسل الى رأس المال الاجنبي ان يطل علينا بنظرة عطف ورضى .

وهل لي أن اذكر ما تقوله الارقام ؟

● تقول الارقام انالقطاع العام يسيطر على ٣٠ بالمائة من وسائل الانتاج ، وان القطاع الخاص يسيطر على ٧٠ بالمائة (بما فى ذلك الزراعة ، مع ملاحظة ان النسبة فى الصناعة وحدها هي ٧٥ بالمائة للقطاع العام ، و ٢٥ بالمائة للقطاع الخاص).

ومع ذلك ، فان القطاع العام اسهم مباشرة فى ميزانية الدولة سنة ١٩٧٥ بما قيمته ٨٠٠ مليون جنيه ، على شكل ارباح وضرائب ورسوم مباشرة .

وفى نفس الوقت ، فان اسهام القطاع الخاص فى هذه المجالات فى ميزانية الدولة سنة ١٩٧٥ لا يزيد على ثلاثين مليون جنيه !!

ولست اريد ان اقلل من أهمية نشاط القطاع الخاص ، ولكن قوة التقدم الكبرى تبقى هي القطاع العام .

● **ورأس المال الاجنبي ؟**

سوف اعطي نموذجا واحدا ، واقفل فمي بعده واسكت !

فى السنتين الاخيرتين ، وبرغم أصابعنا العشرة التي أوقدناها شموعا لراس المال الاجنبي ، كان مجموع استثماراته فى مصر حتى شهر يوليو ١٩٧٥ — من أولها الى اخرها ثلاثة ملايين جنيه استرليني بالتمام والكمال ، جاءت مساهمة فى مشروعات مشتركة أبرزها مشروع « ويمبي » تبيع اللحم المشوي ثم مشروع دجاج « كنتكي » لبيع الدجاج المقلي ، وقد دخلت فى الاستثمارات تحت بند مشروعات سياحية .

وبقية اساطير الانفتاح ما زالت هناك مع السحاب .

ثم مرة أخرى : ماذا أقول ؟!

الحديث الثامن

ويقولون — ضمن ما يقولون — عن جمال عبد الناصر :

— لقد انقض على الارض العربية كأنه الاعصار ... زرع الشوك وحصد الورد ، واشاع الفتنة ، وحبس الود بين ابناء الامة الواحدة !!
فهل هذا صحيح ؟

لكي نستطيع اختبار صحة هذا القول — ومثله — فربما كان مفيدا أن نعود بنظرة على الارض العربية قبل جمال عبد الناصر :

١ — كان الاستعمار البريطاني ما زال يقاوم فى شبه الجزيرة العربية ، وفى مصر ، والسودان ، وليبيا ، لكي يحتفظ بمواقعه المسيطرة القديمة ، وكذلك كان يفعل الاستعمار الفرنسي فى شمال افريقيا .

وكانت الشعوب العربية تقاوم السيطرة ، ولكن ردها كان أضعف من التحدي ، خصوصا بعد ان حقق الاستعمار نجاحه الكبير بانشاء اسرائيل قاعدة له فى قلب الأمة العربية ، تقطع امتداد ارضها ، وتعوق وحدتها ، وتمتص جهودها أولا بأول .

وكانت قوى السيطرة الامريكية واقفة على الباب تنتظر نتيجة المعركة الدائرة بين الاستعمار التقليدي وبين الوطنية العربية ، وكانت خطتها ان تتقدم لتمسك بزمام الامور اذا تحول اتجاه المعركة — ضد الاستعمار التقليدي — او اذا عجز هذا الاستعمار التقليدي عن مواصلة دوره ، بسبب الاستنزاف الذي تعرض له فى الحرب العالمية الثانية ، ومثل هذا حدث فى تركيا واليونان ، اللذين كان لبريطانيا فيهما دور خاص اضطرت للتخلي عنه للولايات المتحدة التي أعلنت « مبدأ ترومان » وهرعت الى التواجد العسكري والسياسي فى تركيا واليونان سنة ١٩٥٠ .

ويلفت النظر ان هذه السنة نفسها التي تبلور فيها مشروع منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط « ميدو » ، كما أطلق عليه وقتها ، ليكون حلقة فى سلسلة احلاف الغرب المعادية للاتحاد السوفيتي — يملأ الفجوة المفتوحة بين حلف الاطلسي « ناتو » ، وحلف جنوب شرق اسيا « سياتو » — وكانت هذه الاحلاف كلها تحت القيادة الامريكية .

٢ — فى نفس الوقت كانت دلائل الصراع الاجتماعي — الصراع الطبقي — موجودة فى المنطقة ، تعكس نفسها داخل كل بلد عربي ، كما تعكس نفسها عبر كل الحدود العربيـــة .
ان تعبير « الصراع الطبقي » ما زال يخيفنا ، وما زلنا نتصوره شحنات من

الكراهية ، وذلك لا مبرر له . واذا نظرنا الى تاريخنا الاجتماعي — نظرة صدق موضوعي — لوجدنا على سبيل المثال : ان الثورة التي قادها الملك عبد العزيز آل سعود كانت فى حقيقتها تعبيرا عن صراع طبقي دار فى اطار قبلي ، وهو يصلح ليكون نموذجا تقليديا لنظرية ابن خلدون الشهيرة عن دورة الصراع بين البدو والحضر ، وبين القبائل والمدن .

بل ان الخلافات الشهيرة فى ذلك الوقت بين الاسر الحاكمة فى المنطقة العربية كانت بشكل ما تعبر عن صراع طبقي بين حكام مجتمعات القبائل وحكام مجتمعات التجار .

اعود الى ما كنت اقوله :

كانت بوادر الصراع الطبقي موجودة فى كل بلد عربي . وفى مصر مثلا كان هذا الصراع بعد ٢٦ يناير ١٩٥٢ مشتعلا بحريق القاهرة ، ملطخا بالدم الذي أساله العنف فى سنوات القلق التي عانتها مصر قبل الثورة .

ثم كانت بوادر الصراع الطبقي موجودة عبر الحدود العربية ، متمثلة فى خلافات الاسر الحاكمة ، والحروب الصغيرة ، وغارات الحدود ، الى اخره .

وكان ذلك شيئا طبيعيا ، من طبائع الحركة التاريخية ذاتها .

بل اننا نرى الان أمام عيوننا صراعا طبقيا يجري على مستوى العالم كله ، وليس على مستوى منطقة محددة ومحدودة فيه .

أليس هناك الان نوع من الصراع الطبقي بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة ، يطلقون عليه — مجازا — تعبير الصراع بين الشمال والجنوب ؟

اليس حقيقيا ان جزءا كبيرا من التأييد الضخم الذي تلقاه الثورة الفلسطينية في المجتمع الدولي ، وفى الامم المتحدة بالذات ، يرجع الى تعاطف كل المحرومين فى العالم النامي مع ثورة المحرومين من كل حق فى فلسطين .

اليس حقيقيا ان جزءا كبيرا من التأييد الضخم الذي تلقاه الثورة الفلسطينية في جنبا الى جنب مع جنود الحركة الشعبية لتحرير انجولا ؟

ان كوبا — جغرافيا — لم تكن فى القارة ،ولكنها — اجتماعيا — وقفت مع ثوارها .

وجنوب أفريقيا — جغرافيا — جزء من القارة ، ولكنها — بانتمائها الاجتماعي — وقفت ضد ثوارها .

٣ — كانت المنطقة كلها ، رغم موقعها الاستراتيجي — وهو حقيقة اكتشفت من قديم الزمان — ورغم ثروتها المحتملة — وهي حقيقة اكتشفت على الاقل منذ بداية القرن — لا تمثل بذاتها أي قيمة ، فى موازين القوى العالمية ، فقد كان ثقلها كله يعود الى من يسيطر عليها ويمسك بمقاديرها من بين القوى الكبرى الغالبة .

بمصالحه ، وتناقضت بالتالي مصالحها مع مصالح الجماهير التي تسلطت عليها .

وبالتالي ، فقد كان كفاح شعوب المنطقة لتحقيق ذاتها وتأكيد تأثيرها على موازين القوى عن طريق التخلص من السيطرة السياسية — هو في نفس الوقت صراع اجتماعي ضد الاستغلال المحلي بأشكاله المختلفة .

ومن هذه الحقيقة الرئيسية ، فلقد تداعت حقائق اخرى ، ابرزها ان الحكم على اصالة أي حركة وطنية سياسية أصبح مرهونا برؤيتها الاجتماعية .

***

كانت الصراعات اذن قبل جمال عبد الناصر موجودة بالطول وبالعرض على الارض العربية ، ولم يأت بها جمال عبد الناصر من عنده ، ولا التقطها من الفراغ التقاطا لكي يفرضها على الامة وشعوبها .

ومع ذلك فلنأخذ مثالا نطبق عليه ، ولنأخذ المثال من أول خلاف عربي قاده جمال عبد الناصر ، وهو خلاف اختفى الان جميع ابطاله ، وهذا مناسب لانه يطرح كل الحساسيات جانبا .

لنأخذ خلافه مع نوري السعيد ما بين سنة ١٩٥٣ الى سنة ١٩٥٨ ، ففي تلك السنوات الخمس انقسم العالم العربي على نفسه كما لم ينقسم من قبل ولا من بعد .

كان موضوع الخلاف هو حلف بغداد — الذي قام تطويرا لفكرة منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط « مبدو » — وهل ينضم اليه العرب بحثا عن مستقبلهم ، او لا ينضمون اليه حرصا على مستقبلهم ؟

نأخذ هذا الخلاف ، وحجج الطرفين فيه ، ونقارن :

□ كانت مصر ، ومن قبل الثورة — وتابعتها في ذلك دول عربية اخرى — قد رفضت فكرة منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط ، فقد وجدتها صيغة جديدة من صيغ السيطرة الاستعمارية .

ثم عرض هذا المشروع على جمال عبد الناصر بعد الثورة ، فكرر رفضه ايضا .

وكان جمال عبد الناصر اكثر وضوحا في رفضه ، فقد كان يريد للعرب ان يقيموا « نظاما عربيا » شاملا لهم على اساس وحدة الامة مصلحة وامنا — ولا يريد نظام « شرق اوسط » يقوم على تعبير جغرافي اخترعته اثناء الحرب العالمية مطالب هذه الحرب واستراتيجياتها .

وكان جمال عبد الناصر يرى ان « نظام الشرق الاوسط » سوف يشمل تركيا وايران وباكستان ، وربما اسرائيل ايضا ولو حتى بطريق غير مباشر .

ولم يكن يرى وحدة مصلحة او امن بين العرب وبين هذه الدول .

وربما كان يرى معها — باستثناء اسرائيل — فرصة للتعاون والتنسيق ، ولكن

النظام يجب أن يكون غير النظام .

ولم يكن عنده مانع ان تنضم تركيا وايران وباكستان الى حلف للنطاق الشمالي من الشرق الاوسط ، لكنه بالنسبة للعرب كان يتصور شيئا اخر : نظام عربي — كما قلت — يستند على :

- جامعة الدول العربية — اطار سياسي
- ميثاق الدفاع العربي المشترك — عمل عسكري موحد .
- سوق عربية مشتركة — اقتصاد يتكامل باستمرار .

□□في مقابل ذلك ، خرج نوري السعيد براي اخر يؤيد حلفا مع الغرب ، وكان رايه ان بريطانيا لن تخرج من مصر والعراق الا اذا اطمانت الى انه ليس هناك فراغ دفاعي ينشأ في المنطقة بعد خروجها ، وبالتالي فالارتباط بالاحلاف هو الوسيلة للخلاص من الاحتلال .

وكان نوري السعيد يرى ايضا أن عهد الاستقلال التقليدي قد انتهى ، وان العالم الان في مرحلة « الاعتماد المتبادل » بين عديد من الاطراف التي تتفق مصالحها ، خصوصا اماء خطر واحد يتهددها ، وان الخطر الذي يتهدد العرب الان هو الخطر الشيوعي القادم من الاتحاد السوفياتي ، والعرب في هذا يلتقون مباشرة مع الغرب الذي يقف للاتحاد السوفيتي بالمرصاد ، ويعوق تقدمه . وكان نوري السعيد يؤكد ذلك بان يشير الى خريطة ، ويقول لمن يناقشه باستمرار :

— أن بين حدود العراق الشمالية وحدود الاتحاد السوفيتي مسافة عشرات الاميال ، واذا لم يكن هناك رادع فان جحافل الجيش الاحمر قد تجتاز الجبال في اي وقت ، وتجتاح العالم العربي كله » .

□ كان عبد الناصر يرد على ذلك بتفنيد حجج نوري السعيد : « ... نحن قادرون على ارغام الاحتلال الاجنبي في ارضنا على ان يحمل عصاه ويرحل » .

« ... ولن يكون في المنطقة فراغ بعد رحيله ، لان المنطقة ليست فضاء عاريا ، وانما المنطقة تسكنها امة عربية قادرة على الاخذ باسباب القوة » .

« ... « والاعتماد المتبادل » مرغوب فيه ، ولكن على اساس وحدة المصلحة والامن ، وبالتالي فاطاره الممكن الوحيد هو الاطار العربي » .

« ... والخطر لن يجيئنا من الشيوعية ولا من الاتحاد السوفيتي ، وانما الخطر الاكبر علينا — وتحديد العدو اول خطوة في رسم اية استراتيجية — هو من اسرائيل ».

« ... وعلى فرض ان الخطر من الشيوعية ، فان الوطنية هي درع المقاومة الحقيقية » .

« ... ثم ان الخطر السوفيتي لن يجيء بالجيش الاحمر زاحفا عبر الجبال

الشمالية ، لان ذلك ـ لو حدث ـ سوف يحرك موازين دولية كبرى » .

« ... ومع ذلك فلننشىء نظامنا العربي المستقبل .

وليكن هذا النظام موجها بالدرجة الاولى ضد اسرائيل ، ثم ليكن بعد ذلك موجها الى اي خطر يجيئنا من اية ناحية ، نصده بكل قوانا ، وليس هناك باس في هـذه الحالة من ان نطلب نجدة القادرين على نجدتنا ضده » .

□□ وكان نوري السعيد يسوق حججا لتدعيم وجهة نظره :

● « كيف نسلح جيوشنا اذا لم نتعاون مع الغرب ، ومن اين نجيء بالسلاح الذي نواجه به اسرائيل ؟ » .
● « ان تركيا وايران وباكستان معنا في حلف ، وسوف يحاربون في صفوفنا ضـد اسرائيـل ؟ »
● « ان هناك رباطا يشدنا الى هؤلاء الثلاثة ، وهو رباط الاسلام .

□ **وكان جمال عبد الناصر يرد :**
● **« ان الغرب ـ الولايات المتحدة بالذات ـ لـن تسلحنا لحرب نخوضها ضـد اسرائيـل » .**

(وقد اكدت التطورات صحة راي جمال عبد الناصر ، فبعد انهيار حلف بغـداد ثبت ان كل ما حصلت عليه العراق من المساعدات العسكرية الامريكية كان ثـلاث طائـرات ! » .

● **« ان تركيا وايران وباكستان لن تحارب معنا ضد اسرائيل ، لانها لا تشعر بخطرها وهي عنه بعيـدة » .**

● **« ان رباط الاسلام مقدس ، وهو لا يشدنا الى هذه الدول الثلاثة وحدها ، ولكنه يشدنا الى شعوب وامم مسلمة في اقاصي اسيا واعماق افريقيا (اندونيسيا ، الملايو في اسيا مثلا ـ والسنغال وغينيا في افريقيا مثلا) ، لكن رباط الاسلام المقدس شيء ، ووحـدة المصلحة والامـن شيء آخر ، خصوصا اذا ارتكزت الى جانب الدين على وحـدة التاريخ ووحدة الثقافـة ووحدة اللغة ووحدة الامتداد الجغرافي المتصل » .**

وانفرد نوري السعيد بموقف وحده ، فوقع بغير اخطار ولا سابق انذار حلـف بغداد مع تركيا ... ولم يقف عند هذا الحد .

وانما وجه الدعوة مفتوحة الى بقية الدول العربية ، خصوصا في المشرق ، لكـي تنضم الى الحلـف الجديد ، وكان الضغط الغربي على اشده في عواصم تلك الدول ، يحاول أن يجرها جرا الى حلف بغداد .

في هذه اللحظة فقط تحرك جمال عبد الناصر الى تصعيد خلافه مع نوري السعيد وكانت وجهة نظـــره :

« لو اقتصر الامر على العراق لقلنا دولة تمارس حقوق سيادتها المشروعـــة ، والحكم على سياساتها يعود لشعبها اولا واخيرا .
ولكن توجيه الدعوة الي بقية الدول العربية والضغط عليها حتى تنضم الى حلف بغداد ، هدم لكل أمل في اقامة « نظام عربي » مستقل .

واحتدمت المعركـــــة .
ووقفت السعودية وسوريا مع مصر .
وانتهت المعركة بسقوط حلف بغداد في بغداد ، وبواســـطة الشعب العراقـــي وجيشـــــه .

نلاحظ هنا عدة اشياء :
١ ــ أن جمال عبد الناصر لم يفتعل الخلاف .
٢ ــ ان جمال عبد الناصر كان في موقف الدفاع ، ولم يكن في موقف الهجوم .
٣ ــ أن جمال عبد الناصر كان على حق ، بنتيجة التجربة التاريخية .
٤ ــ ان جمال عبد الناصر لم يعتمد علىشيء، الا على جماهير الامة العربية وعلىوعيها.

وربما اضفت هنا ملاحظة سريعة في الرد على هؤلاء الذين يقولون ان جمال عبد الناصر اضاع ثروة مصر في « مغامرات » خارجية ، وهم بالطبع يقصدون حركتهالعامة داخل العالم العربي ومن حوله ، هذه الملاحظة هي ان « المغامرات » ، كما يسمونها ، هي في حقيقة امرها التزام قومي ، فاذا طرحنا موضوع الالتزام القومي جانباً ونظـــرنا الى هذه المغامرات نظرة ضيقة واقليمية ، وحتى حسابية ، لقلنا ان هذه « المغامرات » لم تكن خسارة لمصر، وانما كانت كسبا لها ، ذلك ان قيمة اي دولة في العالم ــ خصوصا في عصر الحرب الباردة ــ اصبحت ترتبط بمقدار تاثيرها خارج حدودها الضيقة ، وقد حصل جمال عبد الناصر من العالم الخارجي « بمغامراته » ما يتعدى قيمة مصر داخل حدودها ، لكي يوازي تاثير مصر خارج هذه الحدود .

والبرهان العملي على ذلك هو الارقام ، فمصر « المغامر ة» استطاعت أن تنمي بمعدل زيادة تدره ٦،٦ بالمئة سنويا في الفترة ما بين ١٩٥٥ الى ١٩٦٥ ، طبقا لوثائق البنك الدولي ، واما مصر « غير المغامرة » الطيبة المؤدبة المطيعة ، فان الادخار القومي ــ اساس التنمية ــ فيها سنة ١٩٧٥ كان ١،٢ بالمئة بالناقص ، طبقا لارقام التخطيط المصري !

وكانت معركة حلف بغداد نموذجا لمعارك اخرى خاضها جمال عبد الناصر تحت شعارات عدم الانحياز ، وكان كثيرون لا يؤمنون به في العالم العربي ، وتحت شعارات التنمية ، وكانت مفهوما وافدا على العالم العربي ، وتحت شعار « الاشتراكية » ، وكانت شيئا شبه مكروه في العالم العربي .

واذا التفتنا حولنا الان ، فماذا نجد ؟

ما كان ينادي به جمال عبد الناصر بالامس ويحارب بسببه ، هو الان عقائد اساسية في العالم العربي .

العالم العربي كله ينادي بالموقف المستقل .

والعالم العربي كله يتبنى سياسة عدم الانحياز .

والعالم العربي كله يتجه نحو « الاشتراكية » ، وان اختار لها البعض مسميات اقل عنفا واكثر رقة مثل « العدالة الاجتماعية » .

ويقـال :

***

ـ لم يكن هناك باس فيما دعا اليه ودافع عنه ... ولكن المشكلة كانت مشكلة الاسلوب ... اسلوب التحريض والاثارة ... ادارة السياسة من الشرفات وامام الميكروفونات ... هذه هي القضية » .

والرد على هذه النقطة كما يلي :

١ ـ اليست كل دعوة جديدة تقابل بالصد ، مما يجعلها امام ضرورة الالحاح بكل الوسائل ... لنقرا التاريخ ، ولا احتاج هنا لضرب الامثلة من حياة رواد التغيير او حتى الاصلاح ، ومن حياة رواد الفكر او حتى رواد العلم .

٢ ـ لقد كان العصر عصر الحرب الباردة ... كانت حربا سلاحها التاثير بواسطة الكلمة والصوت ، بدلا من القنبلة والطائرة .

٣ ـ لقد كان على جمال عبد الناصر ان يخاطب جماهير تقع تحت السلطةالرسمية لهؤلاء الذين يقاومون دعوتـه .

٤ ـ لقد كان جمال عبد الناصر الصوت الوحيد المسموع في كل المنطقة من الخليج الى المحيـط ، وكانت كـل القوى تنتظر كلمته ، وكان ضروريا ان يتكلم .

وربما تذكرنا أن جمال عبد الناصر خاض معركة الاحلاف ، وانتصر فيها بغير رصاصة واحدة ، وبغير نقطة دم واحدة .

ومع ذلك ، فلنكن منصفين ، ونسأل :

ـ لقد رحل جمال عبد الناصر في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، فهل سكنت الاعاصير بعده على الارض العربيـة .. وهل عاد الورد وزال الشوك ، واقبل الود وادبرت الفتنة في العلاقات ما بين العـرب ؟

ان كان هو الذي يثير ثائرة الكـل على الكل ، فما بالهم لم يخلدوا الى الهـدوء والصفاء بعد رحيله ؟

●●● والعلاقات بين مصر وسوريا ليست هدوءا وصفاء والعلاقات بين مصر والثورة الفلسطينية ليست هدوءا وصفاء والعلاقات بين مصر وليبيا ليست هدوءا وصفاء والعلاقات بين مصر والاردن ليست هدوءا وصفاء .

وهذه كلها هي خطوط المواجهة مع العدو الواحد ، أو هي عمق جبهة المواجهة!

● **وبعد ذلك :**

العلاقات بين سوريا والعراق ليست هدوء وصفاء .
العلاقات بين ليبيا والمغرب ليست هدوءا وصفاء .

● وهناك ثلاث حروب محتملة أو قائمة فعلا على الساحة العربية :
حرب بين الجزائر والمغرب .
معارك على الحدود بين اليمن الجنوبي وسلطنة عمان .
توتر شديد بين العراق وسوريا .

● **واسوأ من ذلك كله ، حرب أهلية عربية لم نفرغ بعد من تضميد جراحها في لبنان، وكانت خسائر الامة في هذه الحرب الاهلية وحدها أربعة عشر الف قتيل ، واكثر من خمسين الف جريح ، وهذا كله اكبر من خسائر مصر البشرية في كل المواجهة مع اسرائيل ، من حرب فلسطين ١٩٤٨ ، الى حرب السويس ١٩٥٦ ، الى حرب يونيو ١٩٦٧ ، الى حرب الاستنزاف ١٩٦٩ ، الى حرب اكتوبر ١٩٧٣ !**

كل هذا وجمال عبد الناصر بعيد ، لا يحرض احداً ولا يستثير احدا !

لعلي أقول في النهاية ان دور مصر يجب أن يكون موجودا في العالم العربي ، سواء اتهمت بالتدخل في شؤون الاخرين أو لم تتهم .

ومع ذلك ، فلعلي ازعم أن مصر مارست ، وهي تستطيع ان تمارس ، دورها بغير تدخل في شؤون الاخرين .

وفي كل الاحوال فان مخاطر تدخل مصر ... اقل من مخاطر سكوت مصر .

واعترف انني لم اكن سعيدا بدور مصر في الازمة اللبنانية التي تحولت الى شبه حرب اهلية عربية .

واعترف ايضا انني لم اقتنع بحجة « عدم التدخل » كعذر يقدم لسكوت مصر ، كما انني لم أقتنع بمنطق يقول ان عوامل الجغرافيا السياسية كانت تسمح لسوريا مثلا، ولا تسمح لمصر ، بدور ايجابي في حل الازمة اللبنانية .

ان الادعاء « بعدم التدخل » مردود عليه بدواعي المصير الواحد في وسط معركة تخوضها الامة فعلا ، ولا تنتظر الغد لتخوضها .

ثم ان التعلل « بالجغرافيا السياسية » واحكامها مردود عليه بان القبول بمثل هذا المنطق لا يضيع دور مصر فحسب ، وانما يضيع مصر كلها ، من حيث أنه يعزلها عن بقية العالم العربي عزلا كاملا .

ان عامل « الجغرافيا السياسية » يظهر في الامة الواحدة اذا ضاع منها دور المحرك الرئيسي ، ومصر هي المحرك الرئيسي في المنطقة .

ولكي أشرح هذه النقطة أكثر ، أقول :

اذا اخذنا باحكام الجغرافيا السياسية ، واستبعدنا حقيقة الامة الواحدة والقوة الرئيسية المحركة فيها ، فماذا نجد ؟

● ونجد المغرب العربي وحدة جغرافية سياسية ثالثة ، وهي تشمل المغرب والجزائر السعودية ، واليمن الشمالي واليمن الجنوبي ، وعمان ، والامارات العربية المتحدة ، وقطـر ، والبحرين ، والكويـت .

● ونجد الهلال الخصيب وحدة جغرافية سياسية أخرى ، وهي تشمل سوريا ولبنان والعراق والاردن وفلسطين .

● ونجد المغرب العربي وحدة جغرافية سياسية ثالثة ، وهي تشمل المغرب والجزائر وتونس ، وربمـا ليبيـا .

بهذا المنطق : اين تكون مصر ، ومن يبقى معها ؟
يبقى السودان ، وهو بحكم الجغرافيا السياسية ينجذب الى شرق افريقيا ، بمقدار ما ينجذب الى شمال وادي النيل !
ولست أعرف اذا كان ذلك ما نريده ؟

... ...

... ...

ثم أذكر بشيء :

ــ لقد كان بين الاسس التي تم عليها حل الازمة اللبنانية هو العودة الى « اتفاقية القاهرة » ، التي نظمت علاقات المقاومة الفلسطينية مع السلطة اللبنانية .
اسمها « اتفاقية القاهرة » ، لانها عقدت في القاهـرة ، يـوم كانت القاهرة : « مغامـرة » !

كانت الخلافات اذن قبله ، والخلافات مستمرة بعده .
ولربما تغيرت الخطوط ، وتبدلت الصداقات والخصومات ، وخفت موازيـن وثقلت موازيـن .

لكن الخلافات مستمرة ، والصراع دائر .
بل لعلنا ان ننسب الى جمال عبد الناصر فضل « تمدين » الخلافات العربيـة ، فقد رفعها من مستوى ثارات قديمة بـين الملـوك والقبائل والعشائر والطوائف ــ

فجعلها حركة جماهير ، وقضايا مستقبل ومصير : استقلال سياسي ــ تحرر اجتماعي ــ نضال وحدوي ــ تاثير عالمي ــ موارد تعود الى اصحابها ــ سيطرة الشعب على وسائل الانتاج ــ تخطيط ... تامينات ... تصنيع ... تأميم ... زرع صحاري ــ بناء سدود ــ الى اخره ... الى اخره

اي صوت كان هناك بالنداء على هذا كله اعلى من صوته ؟

واي حركة كانت هناك نحو هذا كله اقوى من حركته ؟

مـــن ؟ وايـــن ؟

قولـــوا لنـــا !.

الحديث التاسع

ثم يصلون الى سنة ١٩٦٧ ، وهزيمتها المؤلمة — يقولون :

— والهزيمة ... مسؤوليته عن الهزيمة سنة ١٩٦٧ ؟ »

واقول على الفـــور :

— ان جمال عبد الناصر مسؤول عما حدث سنة ١٩٦٧ ، وقد قبل هو بتحمل كل المسؤولية فيما جرى ، وصارح بذلك شعبه وأمته ، وكانت رغبتهما بعد ذلك معا هي الطلب بأن يظل في موقعه ويقود الحرب ... لقد خسرنا معركة ، ولكـــن الحـــرب مســـتمـــرة !

ولعلي اقول بعد ذلك ان مسؤولية جمال عبد الناصر ، في الدرجة الاولـــى ، تنبع من سببين :

- **السبب الاول : الخطا في حسابات عملية اغلاق خليج العقبة .**
- **السبب الثاني : الخطأ في ترك المشير عبد الحكيم عامر يقود المعركة فعلا ، بينما هو — علميا — لا يصلح لقيادتها ، لانه تحول في الحقيقة عند رتبة الرائد ، من ضابط الـــى ســـياســـي .**

ومع ذلك ، فلكي توضع مسؤولية جمال عبد الناصر في اطارها العملي والتاريخي فانه يتحتم علينا القاء نظرة واسعة طلى الصورة العامة للموقف السياسي والعسكري، كما بدت أمامه وقتهـــا .

***

... اولا — ابدا برؤيته العامة لمجرى الصرا عالعربي — الاسرائيلي :

كان جمال عبد الناصر حريصا كل الحرص فيما يتعلق بالصدام المسلح مع اسرائيل لعـــدة أســـباب :

١ — كان يرى أن الصدام المسلح مع اسرائيل لا بد فيه من حساب احتمالات التدخل الامريكي ، وهو احتمال قائم يستهدف فرض الهزيمـــة على العرب اذا استطاع ، او سلبهم ثمار النصر اذا استطاعوا — واذن فان نجاح الصدام المسلح في رايه كان مرهونا بظرف دولي وعربي ملائم تكون فيه القوة الامريكية مصابة بالشلل ، او يمكن اصابتها به .

٢ ــ كان رايه ان القوات المسلحة المصرية تحتاج على الاقل الــى خمسة عشر عاما تستوعب فيها سلاحها الذي حصلت عليه من الاتحــاد السوفياتي ، ولم يكن يقيس هــذه المدة بتاريخ عقد اول صفقة ســلاح سنة ١٩٥٥ ، وانما كان يقيس ابتداء من سنة ١٩٥٧ ــ ومن هنا ، فقد كانت الفترة المحتملة للصدام المسلح في تقديره هي الفترة الواقعة ما بــين سنة ١٩٧٢ وسنة ١٩٧٥ .

٣ ــ حتى يجيء هذا الوقت وتسنح فرصته ، فقد كانجمال عبــد الناصر يعتقد اعتقاداً راسخا في سياسة يسميها هو « سياسة السنطة وشعرة ذيل الحصان » ، وهي تسمية مستمدة مــن حياة صعيد مصــر وممارساته اليومية ، وكان جمال عبد الناصر يشرح سياسته ، فيقول « ان السنطة نوع من البثور يظهر على الجسم وتتكلس ، وأهل الصعيد في مصر يعالجونه بأن يجيء الواحد منهم بشعرة من ذيل حصان ويلفها حول النمو الدخيل على جسده ، ثم يحكم شدها بحيث يحبس مرور الدم اليها ، وتبدأ الاصابة بعد أيام تتجمد ، ثم تبدأ في الذبول ، ثم تقع من تلقاء نفسها » .

وكان راي جمال عبد الناصر ان اسرائيل نمو دخيل في وسط الجسد العربي ، وأن مقاطعتها واحكام الحصار من حولها وتشديد الضغط عليها كل يوم ، سوف يؤدي الى حبس الدم عن خلاياها ، ومن ثم الى ضمورها وسقوطها .

المهم أن نرفض التعامل معها باستمرار ، المهم ان لا يخف حصارنا عنها طول الوقت، المهم أن تحس بضغطنا من حولها ليل نهار .. وحتى اذا اضطررنا بعــد ذلك الــى استعمال القوة المسلحة ، فان استعمال القوة يجيء في أكثر الظروف ملاءمة . وكانت له نظريته في استعمال القوة المسلحة مع اسرائيل، كان يرى أن الظروف العالمية لاتعطي العرب فرصة تحقيق نصر حاسم نهائي في معركة واحدة ، وهكذا ظل يتصور سلسلة من المعارك تحقق كل منها نصرا جزئيا ــ عسكريا وسياسيا ــ ثم يكون من أثر تراكم هذه الانتصارات كلها أن يشعر المشروع الصهيوني في فلسطين بأن لا أمل له في البقاء .

...ثانيا ــ تصوره العام لمجرى الصراع سنة ١٩٦٧ .

مع بداية سنة ١٩٦٧ ، فان جمال عبد الناصر راح يتابع صورة التطورات في الشرق الاوسط باهتمام مشوب بحذر شديد ــ لعدة أسباب :

١ ــ كان يشعر ان علاقاته بالولايات المتحدة الامريكية قد وصلت الى نقطة عنف شديد عبر عنها قرار الرئيس الامريكي «ليندون جونسون» بوقف بيع القمح الامريكي الى مصر .

٢ ــ لم يكن يستبعد ، والامر كذلك ، ان تلجأ الولايات المتحدة الى « الرادع الاسرائيلي » ، كما فعلت بريطانيا وفرنسا في حرب الســويس ســنة ١٩٥٦ .

٣ ــ كان يرى أن الظروف غير ملائمة له عسكريا بسبب وجود فرقتين من الجيــش المصري في اليمن وقتها ، وكان يقدر أنه اذا ارادت اسرائيل استغلال فرصة ، فهذه هي الفرصة المتاحة لها ، وكان قد حاول من قبــل اكثر من مرة أن ينهي معركة اليمن ، ولكن محاولاته جميعا لم تصل الــى نتيجة ، وتلك قصة أخرى على اي حال !

ومن المفارقات أن الملك حسين ملك الاردن بعث اليه في ذلك الوقت برسالة مــع الفريق عبد المنعم رياض ، يحذره فيها من مؤامرة تستهدف جره الى معركة في ظــروف غير ملائمة ــ وكان ذلك متفقا مع احساسه العام .

***

... ثالثا ــ موقفه ازاء التهديد الموجه الى سوريا

عندما بدأ ليفي اشكول ــ رئيس وزراء اسرائيل في ذلك الوقت ــ وتبعه اسحاق رابين ــ رئيس هيئة أركان حرب الجيش الاسرائيلي ــ يوجهان التهديدات الصريحــة الى سوريا ، ويتحدثان علنا عن « الزحف على دمشق » ، بدأ جمال عبد الناصر يتقصى حجم الخطر الموجه الى سوريا ، وتصادف في ذلك الوقت أن كان أنور السادات فــي موسكو عائدا من رحلة في « كوريا الشمالية » ، فاذا بالرئيس « نيكولاي بادجورني » يطلب اليه نقل رسالة الى عبد الناصر عن الخطر الموجه الى سوريا ، وعن استعدادات اسرائيل لتوجيه ضربة اليهــــا .

وتواترت معلومات عن حشد ما بين تسعة الوية الى احد عشراء لوآء أمام سوريا.

ثم تلقى جمال عبد الناصر من دمشق تقريرا بعث به السفير السوريهناك وقتهــا ، وهو الاستاذ صلاح الطرزي ، يقول « ان مصادر موثوق بها اكدت له أن الهجوم على سوريا قد تحدد بالفترة ما بين ١٦ و ٢٢ مايو » .

وهكذا واجهته ضرورة اتخاذ قرار ، فلقد تأكدت أمامه احتمالات ضربة عسكرية موجهة الى سوريا ، ولم يكن في مقدور مصر أن تقف مكتوفة اليدين .

(ولست أعرف ماذا كانوا يقولون عنه أو عن مصر لو أنه وقف ساكتا ، ولــم يتحرك ، وترك سوريا للغزو وحدها ؟!)

***

... رابعا : قراره بالحركة لمساعدة سوريا وتخفيف الضغط عنها .

كان عليه أن يتحرك قبل ١٦ مايو .

وفي يوم ١٣ مايو اصدر قرارا بحشد قوات مصرية في سيناء تأهبا واستعدادا ، ونستطيع أن نتصور اتجاهات تفكيره في تلك الفترة من خلال مقابلة بينه وبين « الدكتور

ابراهيم ماخوس » وزير خارجية سوريا الذي طار للاجتماع به في القاهرة يوم ١٦ مايو.

وبدا الدكتور ماخوس يروي امامه معلومات دمشق عن الحشود الاسرائيلية ونواياها ، وعن تأكيدات السوفيات لهذه الحشود والتحذير منها . ثم قال الدكتور ماخوس « ان السوفيات ابلغوا السفير السوري في موسكو بانهم سوف يبذلون كل جهدهم لمساعدة سوريا في اي شيء تتعرض له ، حتى ولو اضطروا للتدخل العسكري».

وبدأ جمال عبد الناصر يتكلم ، وكان قوله بالحرف الواحد ، نقلا عن الوقائع الرسمية لتلك المقابلة :

« ليس واضحا امامي ما يستطيع السوفيات عمله لمساعدتكم .. تقديراتنا انهم سوف يعطون تاييدا معنويا ، ولكني لا ارى فرصة لتدخلهم عمليا .

سوف يساعدون في الامم المتحدة ، وربما وجهوا انذارا لامريكا واسرائيل ، ولكن غير ذلك ، ماذا يستطيعون ؟.. كيف يتدخلون عمليا عبر تركيا وايران ؟ »

واستطرد جمال عبد الناصر :

ـــ اننا بحشد قواتنا في سيناء اردنا ان نقوم بمظاهرة كبيرة ، ولكي يكون من هذه المظاهرة رسالة لاسرائيل تجعلها تفكر مرة ثانية .

ولكني ارجوكم انتم في سوريا ان تضبطوا اعصابكم ، ولا تدفعوا الامور الى نقطة الخطر .

انني لا اريد انا قفل باب التراجع وراء اسرائيل . اريدهم ان يتراجعوا بهدوء ، ولا اريد ان اجعل هذه العملية صعبة عليهم ، فمن الخطر في اوقات الازمات ان تغلق وراء عدوك باب التراجع اذا لم تكن تريد الصدام الفوري معه » .

واستطرد جمال عبد الناصر :

ـــ خطتي الان ان اترك قوات الطوارىء في شرم الشيخ وغزة .

لقد طلبنا سحبهم من الخط الواقع بين « طابا » و « رفح » لفتح خط المواجهة امام تدخلنا ، لو اضطررنا الى ذلك .

لكن خروجهم من « شرم الشيخ » سوف يؤدي الى تعقيدات كثيرة ، ثم ان خروجهم من قطاع غزة ليس في صالحنا ، لاننا لا نستطيع الدفاع عن القطاع في حالة نشوب عمليات . من ناحية لأنه ليس لنا فيه قوات ثقيلة بحكم اتفاقيات الهدنة ، ومن ناحية اخرى لان القطاع لا يسمح باي مناورة في الحركة .

واريدكم في دمشق ان تعرفوا ان الموقف دقيق ، وعلينا ان نعالجه باعصاب باردة، وانا اطلب منكم ان تساعدوني بالامتناع عن اي عمل استفزازي في هذه الظروف الساخنة » .

وخرج الدكتور ابراهيم ماخوس ، ويلفت النظر ان جمال عبد الناصر استدعى بعده مباشرة سفير الاتحاد السوفياتي في القاهرة ، وهو وقتها السفير « بوجدانيف »، وقال له :

— اني اريدهم أن يعرفوا في موسكو اننا أخذنا بعض التدابير العسكرية بناء على ما اكدوه لنا من معلومات عن الحشود الاسرائيلية .. أن ما قالوه لانور السادات كان العامل الاكثر تاكيداً لما كان لدينا من معلومات .

وبالتالي ، فاني أريدهم في هذه الفترة ان يتنبهوا الى ما يجري في الشرق الاوسط، خصوصا وهم يتحملون — ادبياً — جزءاً كبيراً من مسؤوليات تطورات الحوادث » .

***

خامساً — قرار اغلاق خليج العقبة ..

كان الطلب المصري الاساسي هو اخلاء قوات الام م المتحدة من خط المواجهة بين « طابا » و « رفح » ، ولكن « يوثانت » السكرتير العام للامم المتحدة ، بناء على نصيحة من مساعده الأمريكي الدكتور « رالف بانش » ، قال أن « عمل قوات الطوارىء هو مهمة سلام لا تتجزأ » .

وبالتالي « فليس هناك مجال لسحب جزء من القوة وابقاء جزء منها ، لان وجود القوة في رايه « مهمة » تؤديها بالكامل أو تتخلى عنها بالكامل ، واذن فهي أما أن تبقى في مواقعها كما هي ، وأما أن تنسحب من جميع مواقعها ، وهذا حق مصر على اي حال بمقتضى اتفاقها مع سلفه داج همرشولد سنة ١٩٥٧ » .

ولم يكن امام جمال عبد الناصر من حل الا ان يطلب سحب القوة من كل مواقعها ، والا فان هذه القوة سوف تكون مانعا بينه وبين اي عمل لنجدة سوريا .

وكان طلب خروج القوة كلها .

ووصلت وحدات الجيش المصري الى شرم الشيخ . وطرحت حكاية خليج العقبة نفسها على الموقف .

يقفل الخليج او لا يقفل في وجه الملاحة الاسرائيلية ؟

ان اغلاق الخليج حق مصري بمقتضى قوانين السيادة والحرب . ثم ان اغلاق الخليج أمام الملاحة الأسرائيلية كان مطلبا عربيا يلح به الكل على مصر ، ولكن القرار لا بد أن يصدر بعد دراسة مسؤولة .

ودعيت اللجنة التنفيذية العليا لاجتماع طارىء ، وطرح امامها موضوع اغلاق خليج العقبة ، وقررت اللجنة باجماع الاراء اغلاق الخليج أمام الملاحة الاسرائيلية تمسكا بحق السيادة ، ونزولا على مقتضيات حالة الحرب ، واستجابة لمطلب عربي ملح ، ثم اقرارا بامر واقع نشأ عن سحب قوة الطوارىء الدولية من كل سيناء .

اللجنة كلها ، باجماع الاراء ، قررت ، ولم يكن القرار انفراديا من جمال عبد الناصر .

(الغريب انني كتبت في ذلك الوقت محذراً من مخاطر اغلاق خليج العقبة ، قائلا ان هذا القرار يعني الحرب . ويومها اتهمت علنا بالانهزامية ، وبين الذين اتهموني وقتها بعض الذين يتهمون جمال عبد الناصر اليوم بالتهور في ذلك القرار ! ؟ .

... سادسا ـ تقدير جمال عبد الناصر لاحتمالات الحرب .

في ذلك الوقت كانت كل المعلومات تشير الى ان اتجاه الحشود الاسرائيلية قد تغير ، فلقد راحت القوات التي كانت في شمال اسرائيل الى جانب قوات اخرى ـ تندفع باقصى سرعة الى الجنوب .

واستدعى جمال عبد الناصر سفير الاتحاد السوفياتي مرة اخرى الى مقابلته ليقول له :

ـ ان الحشود كلها الان على الجبهة المصرية .
لم يعد الخطر الاسرائيلي موجها الى سوريا ، وانما هو الان موجه الى مصر » .
وفي نفس الوقت كان تقدير جمال عبد الناصر كما يلي :

١ ـ انه سوف يبذل جهدا سياسيا مكثفا لكي يحول دون اندلاع

٢ ـ ان نسبة احتمال نشوب عمليات عسكرية سوف تقل مع الوقت ومع نقل التركيز من المجال العسكري الى المجال السياسي .

٣ ـ اذا حدث ونشبت عمليات عسكرية فان القوات المسلحة المصرية سوف تكون قادرة على خوض معركة دفاعية طويلة ، أما على الخط الاول قرب الحدود الدولية ، وأما على الخط الثاني في وسط سيناء اذا اقتضى الامر ، واذا طالت المعركة الدفاعية فان اسرائيل لا تستطيع تحمل استمرارها بوضع التعبئة العامة الكاملة .

٤ ـ أن نشوب عمليات عسكرية في الشرق الاوسط سوف يخلق أزمة مواجهة عالمية ، وذلك سوف يضغط بشدة من أجل وقف اطلاق النار وعودة القوات الى مواقعها الاصلية .

وهكذا بدت المهمة الاولى أمام جمال عبد الناصر أن يتحرك سياسيا بأوسع ما يمكن .

***

... سابعا ـ الحركة السياسية لجمال عبد الناصر وقتها .

في تلك الظروف بدأ جمال عبد الناصر حركة سياسية ، لعلها من أصعب ما قام به في حياته ، وكان يتحرك طول الوقت ، وبأقصى ما يمكن من الفهم والحذر ، وكان يشعر أنه في سباق مع الزمن ومع الخطر .
وجاءته رسالة من الرئيس الاميركي « ليندون جونسون » يناقش فيها تطورات الموقف معه ، ثم يطلب اليه ان يبحث معه عن صيغة لمعالجة الموقف ، ثم يقول في نهاية الرسالة :

« أن الولايات المتحدة ــ وقوى اخرى ــ طلبت الى السكرتير العام للأمم المتحدة يوثانت ان يطير الى منطقة الازمة ، وأن يرى ما يمكن عمله على الطبيعة ، وأنـــي اناشدكم ان تتعاونوا معه الى اقصى حد ممكن » .

ورد جمال عبد الناصر بأنه « سيبذل كل جهده ليفتح سبلا أمام يوثانت ، ولا يغلق أمامه طريقا يمكن أن يؤدي الى تخفيف حدة التوتر » .

وتمكن جمال عبد الناصر من تجنيد كل جهد الجنرال ديجول الرئيس الفرنسي . **بعث اليه ديجول يرجوه أن لا يطلق الرصاصة الاولى .**

ورد على ديجول بأنه لن يطلق الرصاصة الاولى .

ثم بعث الى ديجول بملخص رسالة جونسون اليه ، وأضاف اليها تأكيده بأنه سيبذل كل جهده للتعاون مع السكرتير العام للامم المتحدة .

وحرك مجموعة عدم الانحياز كلهم ... واستغل رصيده الضخم في افريقيا كواحد من مؤسسي منظمة الوحدة الافريقية .

وحين جاء « يوثانت » الى القاهرة ، التقى به جمال عبد الناصر ومعه الدكتور محمود فوزي مستشاره للشؤون الخارجية وقتها ، والسيد محمود رياض وزير خارجيته وكان الاجتماع الحاسم مع يوثانت يوم ٢٤ مايو .

وفي هذا الاجتماع بدأ جمال عبد الناصر يعرض تطورات الحوادث ، ثم بدأ يعرض وجهات نظره ، واستمر الحوار ساعات . ثم خرج يوثانت باقتراح محدد . قال بالحـــرف :

ــ سيادة الرئيس ... نحن الان نحتاج الى وقت ، ولذلك فاني افكر في ان اطلب الى جميـــع الاطراف ان يعلنوا « موراتوريوم » على « تصرفاتهم » .

وسأله جمال عبد الناصر :

ــ ماذا تعني « بموراتوريوم » ؟

وقال يوثانت :

ــ الامتناع عن الحركة .. تجميد الموقف على ما هو عليه .. اطلب من اسرائيل أن لا تتحدى الحصـــار .

وأطلب منك أن لا تفتش بواخر اطراف ثالثة .

وأطلب من كـــل الاطراف الثالثة ان لا تنقل بضائع استراتيجية الى اسرائيـــل . أطلب تجميد الموقف . »

وانتظر يوثانت ليرى أثر كلامــــه .

ولكن جمال عبد الناصر استأذنه في ان يسمح له ان يتكلم بالعربية مع مساعديه : مستشاره الدكتور محمود فوزي ووزير خارجيته محمود رياض .

ودار حديث بين الثلاثة بالعربية ، ويوثانت ينتظر .

والتفت جمال عبد الناصر الى يوثانت وقال له :

ــ انني اريد ان اتعاون معك ، الى اقصى حد .

واذا طلبت مني اعلان موراتوريوم فسوف اقبل ، ولكــن الامر مرهون بقبــول الاطراف الاخــرى . »

وقال يوثانت :

ــ لهذا فاني لا اطلب ذلك منك الان ، وانما سوف اطلبه بعد عودتي الى نيويورك وبعد ان اتشاور مع كــل الاطراف ، وبالذات الدول الكبرى صاحبة العضوية الدائمة في مجلس الامــن .

وســافر يوثانــت .

ولم ينتظر جمال عبد الناصر ساكتــا .

وانما اصدر أوامره بتخفيف اجراءات الحصار عن خليج العقبة ــ الا فيما يتعلق بالبواخر الاسرائيلية ــ وبتجنب أي حادث مفاجيء يمكن ان يفجره تطبيقهــا .

واصــل اتصالاته مع ديجــول .

وبعث وفــدا خاصا الى موســكو .

وبعد ايام ، وبالتحديد يوم ٣٠ مايو جاءته الرسالة المنتظرة من يوثانت ، وكان نصها ــ وانا انقل عن أوراق الامم المتحدة ــ كما يلي بالحرف :

« سيادة الرئيــس

انني اعرف من محادثاتي الاخيرة معكم ومع وزير الخارجية محمود رياض ، انكم تدركون تماما الدوافع التي تدعوني الى توجيه هذا النداء الشخصي والعاجل اليكم .

انكم سوف تلاحظون ان ماأ طلبه منكم ينبع فقط من رغبتي ومن مسؤوليتي العميقة التي تدعوني الى عمل كــل شيء في استطاعتي من اجل تفادي كارثة نشوب حــرب جديدة في الشرق الاوســط .

وخلال زيارتي للقاهرة فان موقفكم وسياستكم في مسالة خليج العقبة قد جرى ايضاحها لي ، واريــد ان اركز على الاهمية الكبرى التي اعلقها على رد فعل ايجابي من جانبي لمناشدتي هذه لكــم ، بدون تاثير ضار على موقفكم او سياستكم .

انني اطلب وقتا ، ولو فسحة محدودة من الوقت ، لكي استطيع ان اعطي فرصة للمشاورات الجهود الدولية التي تحاول أن تبحث عن مخرج من الموقف الحرج الراهن. واريد ان الفت انتباهكم بصفة خاصة الــيها قلته في تقريري الى مجلس الامــن بتاريخ ٢٦ مايو . انني ارى ان ايجاد مخرج سلمي من هذه الازمة يتوقف على فسحة من الوقت يمكن فيها تخفيف حدة التوتر من مستواه المتفجر الحالي .

وبناء على ذلك فانني هنا أدعو جميع الاطراف المعنية الى ممارسة ضبط النفس ، والى تجنب اي اعمال عدائية يكون من شأنها زيادة التوتر ، وهدفي من ذلك أن أعطي مجلس الامن فرصة لعلاج المشاكل التي تنطوي عليها الازمة ، والبحث عن حلول لها .

واني الان اناشدك يا سيادة الرئيس ، كما أناشد رئيس الوزراء اشكول وكل الاطراف المعنية الى ممارسة الحذر عند هذا المنعطف الخطير .

وبالذات وبدون طلب أي تعهدات منكم ، أو حتى رد ، فاني أريد ان أعرب عن الامل في ان تمتنعوا خلال مدة اسبوعين من لحظة استلامكم لهذه الرسالة — عن أي تدخل في الملاحة غير الاسرائيلية عبر مضايق تيران .

وفي هذا الخصوص فهل لي أن أخطركم ، وفي كل الاحوال ، أن لدي من الاسباب ما يجعلني افهم انه في الظروف العادية فانه ليس متوقعا أن تحاول أي باخرة اسرائيلية عبور مضايق تيران خلال مدة الاسبوعين المحددين بل اني أستطيع ان أؤكد لكم ، حسب أدق المعلومات لدي ، بانه خلال السنتين والنصف الاخيرتين لم تقم أي باخرة ترفع العلم الاسرائيلي بالمرور في مضايق تيران .

واستطيع أن أكرر لكم ، يا سيادة الرئيس ، انني بصفة خاصة ، وكذلك المجتمع الدولي كله بصفة عامة ، سوف نقدر تقديراً كبيراً هذه المبادرة من جانبكم .

وارجوكم أن تقبلوا يا سيادة الرئيس أصدق أماني واحترامي الشخصي .

يوثانت

هذه البرقية — وهي تنشر الان لاول مرة — كان لها تاثير كبير في القاهرة ، وكانت دراستها تفصيلا تعطي اشارات واضحة :

١ — ان هذه الرسالة لم تكن لتصدر عن يوثانت الا وهي موضع اتفاق بين القوى الكبرى ، وبالذات الولايات المتحدة .

٢ — أن التاكيد على عدم توقع مرور بواخر اسرائيل تتحدى الحصار معناه أن يوثانت كان على اتصال مباشر أو غير مباشر باسرائيل .

٣ — ان حدة الازمة ربما تتوقف عند الدرجة التي بلغتها الان .

٤ — ان هناك أسبوعين قادمين من الانتظار قبل أن تتحرك الحوادث .

كانت هذه الرسالة بتاريخ ٣٠ مايو .

ثم تأكد هذا كله برسالة الرئيس « جونسون » المباشرة الى جمال عبد الناصر يرجوه في مقابلة ممثل شخصي له ، وهو « روبرت أندرسون » ، الذي جاء بالفعل وقابل جمال عبد الناصر ، ثم تم الاتفاق بينهما على رحلة يقوم بها نائب رئيس الجمهورية المصري السيد زكريا محي الدين الى واشنطن لمقابلة الرئيس « جونسون » والتباحث معه . ثم غادر « أدرستون » القاهرة ، وبعث الى جمال عبد الناصر ببرقية من روما يؤكد فيها أن الرئيس الامريكي سوف يكون في انتظار زكريا محي الدين صباح يوم الثلاثاء ٦ يونية ! .

... ثامنا ــ ماذا حدث اذن بعد ذلك ؟

كان من حـــق جمال عبد الناصر أن يستريح وأن يتصور ان التوتر تخف حدته ، والغريب أنه لم يسترح وانما ذهب يوم الجمعة ٢ يونية ليحضر اجتماعا للقيادة العامة للقـــوات المسلحـــة ، يقـــول فيـــه :

ــ انه يخشى من الايام الثلاثة القادمة .

وكان في تلك الفترة بين عاملين :

- **عامل الاطمئنان على سير تطورات الحركة السياسية .**
- **عامل القلق على احتمالات ضربة اسرائيلية مفاجئة ، ثم كان في ذهنه أنه مهمـــا كانت الظروف فإن القوات المسلحة قادرة على خوض معركة دفاعية طويلة النفس .**

وما لم يكن يعرفه جمال عبد الناصر في ذلك الوقت هو ان الولايات المتحدة ــ كما ثبت عمليا فيما بعد ــ كانت تتحرك بسياستين :

- **سياسة في وزارة الخارجيـــة .**
- **وسياسة اخرى في وكالة المخابرات المركزية .**

كانت وزارة الخارجية تتعامل مع يوثانت ... أو هكذا تقول !
وكانت المخابرات المركزية تتعامل مع المؤسسة العسكرية في اسرائيل وهذا الان مؤكـــــد !

وجاء صباح يوم الاثنين ٥ يونيو ، واختلفت التطورات مع تقديرات جمال عبـــد الناصر ، خصوصا فيما يتعلق « بمعركة دفاعية ذات نفس طويل » .

ووقع الخطآن القاتـــلان :

١ ــ ضربة الطيران الاسرائيلي ، والطريقة التي نجحت بها هذه الضربة .
٢ ــ قرار الانسحاب من سيناء ، وقد صدر صباح ٦ يونيه

واخفيت جسامة ضربة الطيران عن جمال عبد الناصر ... ولم يعرف بقـــرار الانسحاب ، الا بعد صدوره بوقت طويل .

ولا أريد أن أخوض هنا في تفاصيل أكثر ..



... تاســـعا ــ الهزيمـــــة

لقد نسينا عندما وقعت الهزيمة ان حربنا مستمرة .

١ ــ كان شعورنا بالمهانة شديدا ، ولهذا أسباب تبرره ، ولكننا كان يجب أن ندرك ان بين أهداف أعداء العرب تلطيخ سمعة الجيش المصري ، واقناع الشعب المصري والامة العربية أنه ليس في مقدور أيهما ان يعتمد عليه .

كان من اهدافهم ان يسقونا الشعور بالمهانة ، وان يترسب هذا الشعور بالمهانة الى اعماق اعماقنا ... وساعدناهم وشربنا .

لقد هزمت أمم قبلنا في معارك ، ولكنها لم تعتبر هزيمة معركة خسارة للحرب ، طالما أنها تملك ارادتها .

لم تشعر أمريكا بالمهانة بعد «بيرل هاربور» وقيام السلاح الجوي الياباني بتدمير كل الاسطول الامريكي ... وانما شعرت بالتصميم .

ولم تشعر بريطانيا بعد الهزيمة الساحقة في «دنكرك» ... وانما شعرت بالتصميم .

بل ان فرنسا التي استسلمت لهتلر .. استغلت مقاومة ضابط واحد رفض الهزيمة ، وهو « ديجول » ... واعتبرته ممثلا لارادتها ، واعتبرت انتصار الحلفاء انتصارا لها .

أما نحن ، فلم نفعل ذلك .

كانوا يريدون أن يصدروا لنا المهانة ... وكنا نحن على استعداد ، وبشدة ، ان نستوردها !

٢ ــ كان الشعور في العالم العربي بخيبة الامل شديدا ــ وكان له ما يبرره بطبيعة الحال ــ ولكن كان لا بد أن يتذكر الجميع انه بداية ونهاية ليس هناك غير هذا الجيش المصري في الخط الاول ــ ومع جيوش عربية أخرى ــ يستأنف القتال .

٣ ــ الغريب انه مع ظهور دور « التواطؤ » الامريكي ، فقد ظل اللوم يصب على مصر وقيادتها وجيشها بمنطق هؤلاء الذين « لا يقولون للضارب لا تضرب ولكن يقولون للمضرب لا تصرخ » !

***

... عاشرا ــ مسؤولية جمال عبد الناصر .

وجمال عبد الناصر مسؤول ، ولا يمكن لاحد ان يعفيه من مسؤوليته ، بل ولم يقبل هو بديلا عن الاعتراف بها كاملة ، ولم يتمسح بشيء ، ولا توارى خلف أحد .

وعندما يجيء وقت الحكم التاريخي عليه في مسألة الهزيمة ، فلا بد أن توضع في الاعتبار عوامل كثيرة :

١ ــ ظروف الازمة وتداعيها ، وهل كان في وسعه أن يتقاعس عن نجدة سوريا ؟

٢ ــ قيادته للحركة السياسية في الازمة ، والطريقة حاول بها تفادي الانفجار .

٣ ــ تمثيله للارادة العربية في الصمود بعد الهزيمة ، وهذا في حد ذاته من أمجد مواقفه ، فالهزيمة الحقيقية هي هزيمة الارادة ، وليست الهزيمة هي التراجع عن ارض ... خصوصا وان الصراع طويل ومستمر •

٤ ــ نجاحه في اعادة بناء القوات المسلحة في ظرف ستة شهور من الهزيمة •

٥ ــ عودته الى . يدان القتال طبقالسياسة الدفاع ــ والردع ــ والتحــرير ، وقد بلغت عودته الى ميدان القتال قمتها في حرب الاستنزاف التي هي الجولة الرابعة في الحرب العربيــة ــ الاسرائيلية •

٦ ــ استعداده وتخطيطه لمعركــة التحــرير •

٧ ــ ثم ان الهزيمة بكل مسؤولياتها يجب أن توضع في اطارها من كفاحه كله ، فلم تكن معركة ٥ يونيو هي معركته الوحيدة ، وانما كانت واحدة من معاركه ... نجح في بعضها ، ولم ينجح في البعض الاخر •

وبعد مئات السنين ، وحينما يكتب التاريخ بشرف وأمانة ، وبغير أحقاد وعقد ، فان التاريخ سوف ينصف جمال عبد الناصر حتى في هزيمة سنة ١٩٦٧ ... ابســط ما سوف يقــال عنــه :

انه كان رجلا ... تحمل مسؤوليته بشجاعة ، وتقبل الحساب عنها في كبرياء .. ومثل كرامة وارادة أمــة باسرها في يوم من احلك أيامها ... وكان وسط الظلام والعواصف والمؤامرات الدولية : انساناً آمن بوطنه وأمته وبمثلهما العليا ، واعطى حياته لخدمة هذه المثل بشرف ، وأصاب مرات واخطأ مرات ، لكنه حارب طول الوقت بايمان ويقــين ، ولم يستسلم حتى النفس الاخير .. وكذلك يفعل الرجال •

الحديث العاشر

ولا يسكتون ...

كلما ضاعت منهم حجة جاؤوا بغيرها ، وكلما طاش لهم سهم في الفضاء اسرعوا الى الجعبة يبحثون عن سهم اخر ويصوبون !

ــ لقد بادر الولايات المتحدة الامريكية بالعداء ، ولم يعطها نفسا حلواً ، ولا طالعها بوجه مبتسم ... ما لنا نحن والولايات المتحدة وهي القوة الاعظم القادرة على النفع والضرر ... ثم ماذا كانت نتيجة عدائه لها غير انحيازها الكامل الى جانب اسرائيل وغير ضغوطها علينا تشتد حتى كسرت منا الضلوع ؟!

ونسأل :

ــ هل فعل جمال عبد الناصر ذلك ، وهل اندفع فعلا كالثور الاحمق الى معركة غير متكافئة ؟

وتقول لنا نظرة واحدة على خريطة احداث الشرق الاوسط منذ سنة ١٩٥٢ أن ذلك لم يحدث ... بل الغرابة ان ما حدث هو عكس ما يقولون .

لقد بدا جمال عبد الناصر دوره على الساحة المصرية والعربية وهو يحسن الظن كثيرا بالولايات المتحدة الامريكية ومبادئها وسياساتها ، وكانت الورقة الامريكية ومبادئها المعلنة وسياساتها في ظنه ــ ذلك الوقت ــ ورقة محترمة وقوية وحظها في النجاح اقرب من حظوظ غيرها من أوراق لعبة الشرق الاوسط.

كانت الولايات المتحدة خارجة من الحرب العالمية ضد الفاشية في مكانة الديمقراطية الكبرى ، وكانت الافلام الامريكية تعطي صورة مغرية عن مجتمع جديد ، ولم تكن هناك بعد وكالة مخابرات مركزية ، ولا كان هناك ضغط بالمعونات او بالحصار الاقتصادي او بغارات الحرب النفسية . لم تكن صورة الامريكي القبيح قد رسمت بعد ، ولا كان هناك « خليج خنازير » في كوبا ، او مذبحة « ماي لاي » في فيتنام .

وكانت القوة الاعظم الثانية ــ شريكة انتصار الحرب ضد الفاشية ــ وهي الاتحاد السوفياتي ــ ما زالت بعد تحت حكم ستالين .

وكانت بريطانيا هي عدو العرب في المشرق ... وفرنسا عدوهم في المغرب .

وهكذا كان الخيار الامريكي يفرض نفسه ، لا على جمال عبد الناصر وحده ، وانما على معظم قيادات حركة الثورة الوطنية .

واستعمل جمال عبد الناصر الورقة الامريكية في الضغط على بريطانيا من أجل

الجلاء ، وحاول أن يحصل منها ، بعد ثلاثة شهور من الثورة ، على سلاح للجيش المصري ، وتلقى وعدا بذلك ، ثم حدث تراجع عن الوعد وقيل له في تبرير ذلك بالحرف:

ـــ لقد كانت قائمة طلباتكم من السلاح على مكتب الرئيس الامريكي الجديد ـــ دوايت ايزنهاور ـــ وكان على وشــك أن يبت فيها بالموافقة ، ولكن ونستون تشرشل ـــ رئيس وزراء بريطانيا ـــ اتصل بـــه تليفونيا وقال « هل صحيح انك ستبيع سلاحا لمصر ؟ » ، ورد عليه ايزنهاور بأنه على وشــك اتخاذ قرار . وناشده تشرشـــل ان يؤجـــل ، لان جمال عبد الناصر يهدد بحر بشعبية في منطقة القناة لاجبار الجيـــش البريطاني على الانسحاب . ثم أضاف تشرشل « أنك لن ترضى أن تعطي للمصريين سلاحا يقتلون به جنود الجيش البريطاني الذين كانوا تحت قيادتك في الحرب العالميـــة الثانيـــة » . وتردد ايزنهاور .

حتى ذلك الوقت ـــ فبراير ١٩٥٣ ـــ كان جمال عبد الناصر يحسن الظن بالامريكيين ويجد عذرهم في الاستجابة لحلفائهم ، خصوصا على المستوى العاطفي ، عذرا مقبولا . وصدق مـــا قالوه لـــه ، واستجاب لنبرة الود المشوبة بالاسف في أعتذارهم له .

ومن ناحيتهم ، فلست أعتقد ان الامريكيين ـــ في ذلـــك الوقـــت ـــ احســـنوا تقييـــم وتقدير جمال عبد الناصر ، وثورته في مصر ، وصداها في العالم العربي .

تصوروه انقلابيا من نوع ما عرفوا في امريكا اللاتينية او غيرها .. ضابط شاب، يقفـــز على السلطة بالدبابة والمدفع ، وفي اليوم الاول يعلّن على شعبه امالا في التغيير بلا حـــد ، ولكن اليوم الثاني يجيء ، فاذا بطل الاحلام لا يغير ، وانما يتغير . يلبس رداء السلطة ثم يجمـــد الامـــر الواقع ويثبته ، وتذهب الاحلام الى صحارى الضياع ... سرابا رأته العيون لحظـــة ، واتجهت اليه الاقدام في شوق ، فلم تجده حيـــث تصورته ، ولم تعثر له على أثر !

ونستطيع القول بأن جمال عبد الناصر لم يقبل على الخيار الامريكي متصورا أن الطريق مفتوح والريح رخاء ، فلقد قدر منذ البداية أن هناك أسبابا حقيقية لمشاكل مع الولايات المتحدة ترجع في معظمها الى ما رآه وقتهـــا ، ووصفه بتعبير « المـــأزق الامريكـــي » .

والمأزق الامريكي ، كما تصوره وشخصه وقتها :

أن الولايات المتحدة تجد مصالحها كلها مع العرب .

ولكن الولايات المتحدة ترتبط باسرائيل بأكثر من سبب: منها الاعتبارات العاطفية، ومنها التأثير الصهيوني في الحياة الامريكية ، ومنها ما يعتقده راســـــمو السياسة في واشنطن من ان صما مالامـــن النهائي في الســـيطرة على المنطقة هو اسرائيل .

كان يرى ذلـــك مأزقـــا .

وتصور انـــه اذا استطاع ان يساعد على ايجاد حل لهذا المازق ، او حتى صيغة تعامل مقبـــول ـــ اذن فان الولايات المتحدة سوف تغلب مصالحها على اية اعتبـــارات أخـــرى ، خصوصا اذا نمت ثقـــة متبادلة بين الطرفين ... بالتعامل الحر والحوار المفتوح وحسن النية المســـبق .

وفوجيء جمال عبد الناصر بالتجربة ، ووقائع التجربة مع الولايات المتحـــدة ، وفي النهاية كانت له عبارة ترسم خيبة أمله فيها كلها ، وكان يقولها في الم :

ــ على كل بقعة من جسمي كي بالنار ، مما فعلوه بنا ، او حاولوه معنا !

***

بدات الواقعة ــ او الموقعة ــ الاولى بين جمال عبد الناصر وبين الولايات المتحدة في قضية الاحلاف ، لوحوا لـــه بأنهم سوف يساعدون في اقناع الانجليز بالجلاء ، اذا هو انضم في حلف دفاعي مع الغرب في الشرق الاوسط .

وحاول أن يشرح وجهة نظره « لجون فوستر دالاس » وزير خارجية الولايات المتحدة عندما جاء الى مصر في ربيع سنة ١٩٥٣ . قال له :

ــ لا اتصور ان في مقدورنا أن نقبـــل حلفا دفاعيا تتحول به قوة الاحتلال من عدو الى حليف ، وبدلا من العلم البريطاني على قواعد القناة ، يرفع علم الحلف .

نحن نريد الاستقلال اولا لكي تكون لنا ارادة حرة نقرر بها اذا كانت الاحـــلاف في صالحنا ، او هي في غير صالحنا .

وربما قلت لك من الان اننا لا نراها في صالحنا ، فلست افهم كيف ننضم الى حلف ضد الاتحاد السوفياتي وهو بعيد عنا لم يبادرنا بعداء ، ثم ننسى أن عداءنا الحقيقي هو مـــع هؤلاء الذين احتلوا أرضنا من أكثر من سبعين عاما .

ثم انني لا اعتبر ان الشيوعية خطر علينا ، واذا كانت خطرا فان مقاومتها لا تكون بالاحلاف العسكرية ، لان السوفيات لن يهاجموا الشرق الاوسط بالجيش الاحمر ، وانما سوف يحاولون ــ اذا حاولوا ــ النفاذ من جهات داخلية ساءت أوضاعها بسبب التخلف والاستغلال والتبعيـــة ، ومن هنا فان دفاعنا الحقيقي ضد الشيوعية يكـــون بالوطنية بمعناها الحقيقي بكونها خلاصا من التبعية ، وعملا ضد التخلف ، وعدلا يجد فيه المواطن حياته وكرامتـــه .

ومهما يكن فاني أسلم بانه قد تكون هناك اخطار علينا ، واول هـــذه الاخطـــار اسرائيل ، ووسيلتنا في مقاومة هذه الاخطار هي ميثاق الدفاع العربي المشترك ، امـــا حلف للدفاع عن الشرق الاوسط ، فاني أخشى انني فيه سوف أجد نفسي حليفا لاسرائيل التي تعتبرها شعوبنا كلها عدوها الرئيسي في هذه المرحلة ! »

ولم يفهم جون فوستر دالاس .

وصدرت الاشارة بترك القاهرة جانبا ، والاتجاه الى بغداد لتكون نواة حلـــف الدفاع عن الشرق الاوسط ، ثم بدأ الضغط على غير بغداد من عواصم الهلال الخصيب .

واضطر جمال عبد الناصر الى انيقاوم . . وقاوم حلف بغداد دون ان يسد طرقا او ينسف جسورا تقطع المواصلات مع الولايات المتحدة .

وبدات الموقعة الثانية من قلب تلك الموقعة الاولى ، فقد تصور « دالاس » انه اذا استطاع ان يرتب لصلح بين مصر واسرائيل ، فان ذلك سوف يزيل اكبر عقبات اشتراك مصر فى حلف بغــداد .

وطارت بعثة فى السر الى القاهرة ، يرأسها « روبرت اندرسون » الذي كان وزيرا للخزانة مع ايزنهاور ، والتقى مع جمال عبد الناصر ، وعرض عليه رغبـــة الولايات المتحدة فى السعي بصلح بين مصر واسرائيل ، ولم يجادله جمال عبد الناصر ، وانما وضع امامه شروطه ، وكانت :

- حق شعب فلسطين فى تقرير مصيره على أرضه ..
- ثم ان تطمئن مصر الى ان الاتصال البري بينها وبين بقية العالم العربي في المشرق مفتوح ، ولا يكون ذلك الا بتراجع اسرائيل عن النقب .

وسافر « اندرسون » الى اسرائيل ليقابل « بن جوريون » وعاد يقول لعبـــد النـــاصر :

ــ ان بن جوريون ذعر عندما سمع اقتراحاته ،فمعناها ان لا تكون هناك اسرائيل»
واستطرد « اندرسون » يقول ان « بن جوريون » عرض اقتراحا وجيها ، وهو ان يلتقي مع جمال عبد الناصر وجها لوجه ، وان يجيء اليه هو فى القاهرة ــ او اي مكان غيرها يحدده ــ سرا او علنا ، حسبما يختار .

ورفض جمال عبد الناصر قائلا لاندرسون :

ــ لا استطيع مقابلته لمائة سبب ، على الاقل .

أولها انه اذا جاء لمقابلتي فى القاهرة فانني لا استطيع أن اضمن سلامته ... واذا ذهبت للقائه خارج مصر ، فما أظنني استطيع العودة اليها » .

ولم يفهم « اندرسون » ... ولا فهم « دالاس » ... ولا فهم « ايزنهاور » . وبدأت الشكوك من الناحيتين .

***

وجاءت الموقعة الثالثة حين الح جمال عبد الناصر فى طلب السلاح من الولايات المتحدة ، فلما احس انه لن يحصل على ما طلب ، توجه الى الاتحاد السوفيتي ، ولم يعقد صفقة سلاح فقط ، وانما كسر احتكار السلاح فى المنطقة الى الابد .

وجن جنون « دالاس » وبعث الى جمال عبد الناصر بانذار شفوي :

انه سوف يقطع المعونة الاقتصادية عن مصر (لم تكن هناك بعد معونـــة ، وانما كان هناك وعد بها) .

ثم انه سوف يقطع كل تعامل أمريكي مع مصر .

ثم انه على استعداد لقطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر .

واخيرا ، فانه على استعداد لان يصل الى حد فرض حصار بالاسطول السادس على الشواطىء المصرية ، يمنع وصول السلاح السوفيتي اليها » .

ورفض جمال عبد الناصر الانذار ، وقرر دالاس ان يرسل مساعده فى وزارة الخارجية « جورج آلين » بأنذار مكتوب . وبعث جمال عبد الناصر الى السفارة الامريكية يقول انه سوف يقابل « جورج آلين » ، ولكنه اذا اشتم فى كلامه رائحة تهديد او انذار ، فسوف يطرده على الفور من مكتبه .

وادرك « دالاس » انه امام خصم مستعد للمقاومة وقادر عليها ، فترك التهديد الى الاغراء ، وكان قوله :

ــ ليكن .. ان الاتحاد السوفيتي يصدر لكم ادوات الموت .. واما نحن فسوف نصدر لكم ادوات الحياة ، وهكذا فقد قررنا مساعدتكم فى مشروع بناء السد العالي الذي تحدثون عنه وتحلمون ببنائه » .

ثم أبدى « دالاس » بعد فترة تخوفه من استمرار تدفق السلاح على مصر بحجة ان ذلك سوف يستنفذ مواردها ولا يستبقى منها شيئا للسد العالي ، وهكذا طلب وقف مشتروات السلاح من الاتحاد السوفيتي ، ثم طلب وقف المقاومة ضد حلف بغداد.

ورفض جمال عبد الناصر .

وكان قرار دالاس سحب عرض المساهمة فى تمويل السد العالي .

ورد عبد الناصر بتأميم قناة السويس .. وجاء العدوان البريطاني الفرنسي الاسرائيلي ، ووقف العالم كله على حافة الهاوية .

واضطر دالاس بعد الانذار السوفيتي الى التعاون لفك الازمة الخطرة .

ولكنه لم يغفر لجمال عبد الناصر ما فعل ، وكانت تلك هي الفترة التي بحث فيها امر جمال عبد الناصر فى اجتماع للمخابرات المركزية ، وقال جون فوستر دالاس لشقيقه آلان دالاس . وهو مدير المخابرات المركزية وقتها :

ــ الا تستطيع المخابرات تصفية مشكلة عبد الناصر » .

وهز آلان دالاس رأسه ، وبدأت وكالته ترسل فرق الاغتيال واحدة بعد واحدة لاصطياد جمال عبد الناصر .

ثم الموقعة الرابعة :

... دالاس يحاول تنفيذ اهداف العدوان الثلاثي بوسائل أخرى . الحصار الاقتصادي ، ثم الحصار السياسي عن طريق عز لمصر بمشروع ايزنهاور ، ثم الضغط على سوريا اكبر حلفائه بحكم دورها التاريخي فى الحركة القومية .

وافلت عبد الناصر من الحصار الاقتصادي ، ولم ينجح الحصار السياسي فى عزل مصر ، وانما سقط مشروع ايزنهاور ، وبدا التفكير فى غزو سوريا ، واذا قوة مصرية تذهب الى سوريا ، ثم اذا الوحدة تعلن ، ثم اذا حلف بغداد ينهار فى بغداد ، وجرى الاسطول الامريكي فاقتحم الشواطىء اللبنانية ، ثم اكتشف دالاس أن الولايات المتحدة لن تستطيع ارغام العالم العربي على الركوع بمجرد ظهور بحارة الاسطول الامريكي السادس على رمال الشاطىء فى بيروت .

واصبح الموقف شديد التوتر ، واضطر دالاس الى التراجع ، ثم عاد ايزنهاور يحاول استرضاء عبد الناصر بشحنات من القمح الامريكي لمصر ، ولكن ما فى القلب بقي فى القلب !

***

ومع بداية عصر جون كنيدي — ١٩٦١ — ورئاسته للولايات المتحدة الامريكية — جرت الموقعة الخامسة .

بدأ كنيدي بسياسة تدعو الي ارتياد « الافاق الجديدة » ، وتصور ان الشرق الاوسط افق من هذه الافاق ، يستطيع ان يترك عليه بصمات اصابعه ، وبدا مراسلات — استمرت طويلا — مع جمال عبد الناصر .

وكانت اولى الرسائل عن العلاقات بين مصر واسرائيل ، وافاض كنيدي فى مزايا السلام اذا تحقق على الارض المقدسة .

ورد جمال عبد الناصر بخطابه المشهور الذي قال فيه عن وعد بلفور « ان من لا يملك أعطى وعداً لمن لا يستحق » وضاعت بذلك حقوق شعب فلسطين .

واتصلت الرسائل ذاهبة عائدة من واشنطن الى القاهرة وبالعكس ، واكتشف جون كنيدي أن الامر أعقد مما تصور ، وصدرت الاشارة الى المخابرات الامريكية ، فعادت تحاول ضد مصر ، وهدفها فى ذلك الوقت كسر الوحدة بينها وبين سوريا .

وتحقق لها ما ارادت ، وتصورت أن ضرب الوحدة فى سوريا سوف يعقبه انكسار النظام وسقوطه فى القاهرة .. ولكن جمال عبد الناصر كان يقاوم بشدة

***

وضراوة رغم صدمة الانفصال .

فى عصر كنيدي أيضا جاءت الموقعة السادسة .

مصر تبني صناعة طائرات وصناعة صواريخ ، واسرائيل تشكو من نشاط علماء المان جاءت بهم مصر لمساعدتها فى مشروعها الطموح .

وكتب كنيدي الى عبد الناصر مستفسرا : ورد جمال عبد الناصر بقوله :
— اريد ان اكون واضحا وعمليا .

اننا نحاول بناء صناعة طائرات ، وبناء صناعة صواريخ ، ولكن امامنا وقتا طويلا لتصبح هذه الصناعات عماداً لتسليحنا .

ان هدفي منها بالدرجة الاولى فى هذه المرحلة ، هو الحصول على تكنولوجيا عصر جديد .

(من الغريب ان البعض هاجموا جمال عبد الناصر فى صناعة الطائرات والصواريخ ، واعتبروا ما صرف عليها فى ذلك الوقت تبديدا لاموال لا داعي لتبديدها).

ومرت الايام ، وجاء الوقت الذي اصبحت فيه هذه المصانع هي نصيب مصر العيني في اقامة مؤسسة صناعات الاسلحة العربية ، وقومت حين قومت في اصـول هذه المؤسسة باكثر مما دفع فيها عند انشائها) .

ووجدت الولايات المتحدة ان ما قاله عبد الناصر ليس مدعاة للطمأنينة وانما هو مدعاة لمزيد من القلق ... فأخطر من بناء الطائرات والصواريخ ، ان تكون لـدى مصر معرفة واستيعاب لتكنولوجيا عصر جديد .

وكانت اسرائيل لا تكف عن الشكوى لان جمال عبد الناصر اغلق امامها سوق السلاح فى بريطانيا التي اكتوت اصابعها بالنار فى السويس ، ثم اغلق امامها سوق السلاح فى فرنسا حين انشأ خط علاقات مباشر بينه وبين الجنرال ديجول .

وقرر جون كنيدي ان تدخل الولايات المتحدة لاول مرة فى دور بائع السلاح لاسرائيل ، وهكذا عقد معها صفقة لعدد من بطاريات صواريخ « هوك » .

وكتب الى جمال عبد الناصر اسوأ رسالة فى سلسلة مراسلاتهما .

قال جون كنيدي فى رسالته ما مؤداه ان الولايات المتحدة قررت تقديم شحنات اسلحة محدودة الى أسرائيل ، « وانه اذا انتهزت مصر هذه الفرصة للقيام بحملـة دعائية واسعة ضد الولايات المتحدة فى العالم العربي ، فان واشنطن سوف ترد على ذلك بارسال المزيد من الاسلحة الى اسرائيل ! »

ولم يسكت جمال عبد الناصر ، بالطبع ، وبدأت حدة التوتر فى العلاقات تزداد .

***

والموقعة السادسة في عصر جون كنيدي هي الاخرى .

كانت الولايات المتحدة مشغولة بأزمة الصواريخ فى كوبا ، وقد وصلت هذه الازمة الى حدود خطرة تهدد بمواجهة نووية بين القوتين الاعظم.

وفى تلك الساعات اتخذ القرار المصري بالتدخل لنجدة ثورة اليمن .

وحين رفع كنيدي عينيه عن ازمة الصواريخ ، فوجىء بالوجود المصري العسكري فى جنوب شبه الجزيرة العربية .

وبذل جون كنيدي فى البداية محاولات لكي تسحب مصر قواتها من اليمن ، ثـم تغيرت الاستراتيجية .

بدلا من حث مصر او تطمينها لسحب قواتها من اليمن ، بدأت استراتيجية اخرى تفرض على مصر ان ترسل جزءا كبيرا من قوتها الى اليمن .

وهنا يظهر الدور الكبير الذي قامت به وكالة المخابرات المركزية الامريكية فى تجنيد قوة مرتزقة من الاجانب يحاربون ضد مصر فى اليمن .

فى وقت من الاوقات بلغ عددهم اثني عشر الفا .

واستطاعت المخابرات المركزية الامريكية ان تحصل على مساعدة اسرائيل لهم ، فقد تكفل الطيران الاسرائيلي بعمليات اسقاط المؤن والذخائر لهم فى مواقع محددة بالقرب من مكامنهم فى الكهوف وعلى الجبال وفى الوديان .

وادى ذلك بالطبع الى تعقيدات كثيرة ، فلم تكن هذه المشكلة مشكلة دعاية او سياسة .. او اختلاف وجهات نظر ، وانما اصطبغ الخلاف بلون الدم .

***

وسقط كنيدي فى مدينة « دالاس » — « تكساس » — برصاصات شاب مجهول هو « لي أوزوالد » وخلفه « ليندون جونسون » ومعه الموقعة السابعة .

وبعث « جونسون » الى جمال عبد الناصر يطلب للولايات المتحدة حق الهيمنة على موازين السلاح فى المنطقة ، بدعوى ضرورة تحديده ، حتى لا يكون من تكديسه حافزا لاستعماله حتى ضد نوايا الاطراف ورغباتهم .

وهكذا تقدم « جونسون » يطلب حق التفتيش على المفاعل النووي المصري ، وحق التفتيش على مصانع الطائرات والصواريخ المصرية ..
وكان الطلب غريبا ...

وكان الجو الذي صاحبه أشد غرابة .

وحين رفض جمال عبد الناصر كان الشد والجذب فى العلاقات المصرية الامريكية قد وصل الى قرب درجة القطيعة .

***

ثم كان « جونسون » ايضا بطل الموقعة الثامنة ، فقد احس ان جمال عبد الناصر يتحدى النفوذ الامريكي فى المنطقة ، ويرفض كل الطلبات الامريكية ، ويعبىء الجماهير العربية ضد السياسات الامريكية . ولم يكن جمال عبد الناصر يفعل ذلك نكاية فى أمريكا ، ولكنه كان يريد تثبيت وتدعيم قاعدة المقاومة العربية ، بأن تكون الشعوب العربية كلها واعية بما يجري ، موجودة عن طريق هذا الوعي كطرف فى الصراع .

وقرر جونسون وقف مبيعات القمح لمصر ، وفقا لقانون ب.ل ٤٨٠ .

وجاء هذا القرار فى الوقت الذي يستطيع ضرره أن يكون محسوساً .
جاء فى وقت بدات تظهر فيه الاثار التضخمية لتنفيذ خطة السنوات الخمسة الاولى للتنمية الشاملة .

وجاء فى وقت تصاعدت فيه نفقات المعليات العسكرية فى اليمن .

وضرب جونسون ضربته ، وكان ذلك فى نهاية سنة ١٩٦٦ .

***

وفى منتصف سنة ١٩٦٧ ، يونيو بالتحديد ، جاءت الواقعة التاسعة ، وكانت اكثر المحاولات شراسة واشدها عنفا .

ولسوف تمر سنوات طويلة قبل أن يظهر الدور الذي قامت به الولايات المتحدة فى معركة يونيو ١٩٦٧ ، ولكن الثابت من الان ان مساعدة الولايات المتحدة لاسرائيل سارت فى طريقين متوازيين فى تلك الظروف :

... طريق رسمي علني — سياسي بالدرجة الاولى — وقد تمثل فى الوعد الامريكي الذي اتخذ فى مجلس الامن القومي الامريكي بأن تضمن الولايات المتحدة لاسرائيل أمرين :

- الاول ، تفوق فى السلاح على كل الجيوش العربية .
- والثاني ، ضمان انه فى حالة قيام عمليات فان الولايات المتحدة سوف تتدخل عسكريا اذا كان هناك ما يوحي بوجود انتصار مصري .

فاذا كان هناك انتصار اسرائيلي فان الولايات المتحدة تضمن لاسرائيل آن لا يصدر قرار من الامم المتحدة يفرض عليها الانسحاب من اراض تكون قد احتلتها ، ثم ان الولايات المتحدة تضمن أيضا ان لا يكون هناك ضغط يمارس دوليا على اسرائيل ما لم يقبل العرب بعقد الصلح معها أو اقامة السلام .

... واما الطريق الثاني الذي مشت عليه المساعدة الامريكية لاسرائيل ، فقد كان طريقا سريا — وعسكريا بالدرجة الاولى — قامت به وتولت مسؤوليته وكالة المخابرات المركزية الامريكية ، التي تكفلت بتقديم المعلومات عن أوضاع القوات المصرية ، والتي اشترك اسطول طائراتها فى نقل الاسلحة والذخائر ، والتي تولت تجنيد متطوعين للحرب مع اسرائيل ، خصوصا من جنوب أفريقيا وروديسيا .

وبعد هذه الموقعة ، كان الغضب جامحا فى العالم العربي ، وقطع جمال عبد الناصر علاقات مصر مع الولايات المتحدة ، وتبعته فى ذلك دول عربية عديدة ، وبدأ نزوح الرعايا الامريكيين من الشرق الاوسط ، بينما جونسون فى ثورة عارمة على مشهد هذا « الخروج » الذي اعتبره مهينا لامريكا ، وكان ذلك ابسط نوع من انواع الاحتجاج على الاشتراك فى المؤامرة الكبرى .

برغمذلككله ، لم يدع جمال عبد الناصر للغضب الشخصي سبيلا الى قراراته . كان يدرك ان بين الامة العربية وبين الولايات المتحدة تناقضا اساسيا ، ولكن الحذر فى ادارة هذا التناقض واجب .

وقدر جمال عبد الناصر انه لا أمل فى فتح باب بينما « جونسون » فى البيت الابيض ، وهكذا لم تكد مدة رئاسته تنتهي ويفوز « ريتشارد نيكسون » بالرئاسة بعده ، حتى انتهز جمال عبد الناصر الفرصة فبعث الى « نيكسون » برسالة تهنئة .

ورد « نيكسون » بارسال بعثة تقصي حقائق فى ازمة الشرق الاوسط ، يرأسها « وليم سكرانتون » الذي عين اخيرا مندوبا دائما للولايات المتحدة الامريكية فى الامم

المتحدة ، وتعثرت بعثة « سكرانتون » وسقطت على الارض لمجرد انه ادلى بتصريح بعد عودته من مهمته فى الشرق الاوسط الى واشنطن ، قال فيه « ان الولايات المتحدة لا بد لها أن تتبع سياسة متوازنة فى الصراع العربي الاسرائيلي » .

ولم ييأس جمال عبد الناصر ، وانما انتهز فرصة أخرى ... هي فرصة وفاة « الجنرال ايزنهاور » ، فبعث بالدكتور محمود فوزي على رأس وفد للعزاء فى « واشنطن » ، وكلفه باستكشاف آفاق التفكير الامريكي فى الازمة .

وحتى بعد ان قامت طائرات الفانتوم بغاراتها على عمق مصر ، وضربت مصنع ابو زعبل ومدرسة بحر البقر ، قبل جمال عبد الناصر باستقبال « جوزيف سيسكو » مساعد وزير الخارجية الامريكية لشؤون الشرق الاوسط وقضى ساعتين يتحدث معه .

ثم وقف فى عيد أول مايو سنة ١٩٧٠ يوجه نداء الى الرئيس الامريكي ريتشارد نيكسون ، يخيره بين احد امرين : ان يطلب الى اسرائيل الانسحاب فورا من الاراضي المحتلة ، أو ان يوقف عنها شحنات السلاح ، لان استمرار احتلالها للاراضي العربية مع استمرار تزويدها بالسلاح الامريكي معناه ان الولايات المتحدة شريكة فى تثبيت هذا الاحتلال الاسرائيلي للارض العربية » .

وجاء الرد على شكل « مبادرة روجرز » ، وقبلها جمال عبد الناصر ليعطي للرئيس الامريكي فرصة ، ولكي يعطي نفسه فى ذات الوقت فرصة لاستكمال بناء حائط الصواريخ على جبهة قناة السويس .

فى هذا كله كان جمال عبد الناصر يدرك مشكلتين :

- **مشكلة التناقض بين العرب والولايات المتحدة ، وهو تناقض له اسبابه العديدة والمتنوعة .**
- **وفى نفس الوقت ، مشكلة اختيار الاسلوب الملائم لادارة هذا التناقض فى ظل اوضاع القوة الدولية الراهنة .**

***

ومع ذلك جاءت الموقعة العاشرة ــ والاخيرة حتى الان ــ بين العرب وبين الولايات المتحدة ، ولعلها كانت بعد سنة ١٩٦٧ أعنف المواقع .

فى الوقت الذي استطاعت فيه الجيوش العربية على الجبهات العربية ، وفى مقدمتها الجيشين المصري والسوري ، توجيه ضربة مفاجئة لاسرائيل فى اكتوبر ١٩٧٣ ، سارعت الولايات المتحدة الى نجدة اسرائيل ، حتى وجد الرئيس انور السادات نفسه ، وعلى حد قوله ، « يحارب الولايات المتحدة » .

كانت الولايات المتحدة هي التي أعطت لاسرائيل ، وسط المعركة ، سلاحا عبرت به قناة السويس من الشرق الى الغرب ، ردا على عبور الجيش المصري من الغرب الى الشرق !

ثم اتبعت الولايات المتحدة هذا العمل المكشوف باعمال اخرى مستترة ، استهدفت جميعا اجهاض الموقف السياسي العربي ، وتفريغه من كل قواه الضاغطة ، الى جانب تمزيق تماسك الجبهات العربية المحيطة باسرائيل .

الم يحدث هــذا ؟

حـــدث ...

وكان جمال عبد الناصر فى مثواه الاخير منذ اكثر من ثلاث سنوات .

ولم يكن هناك يستفز الولايات المتحدة ، او يبادرها بعداء ، او يطالعها بوجه عابس او مبتسم !!

الحديث الحادي عشر

تظل هناك نقطة فى ادعاءاتهم على جمال عبد الناصر :

ــ لقد فتح ابواب الشرق الاوسط امام الاتحاد السوفياتي ، وادخله الى المنطقة قوة تؤثر فى مقدراتها ؟ »

ونناقش هذه النقطة بموضوعية ، ولعلي واحد من الذين يستطيعون مناقشتها دون أي حساسية ، فلقد تصديت كثيرا لنقد السياسة السوفياتية فى المنطقة ، وتعرضت مرارا لحملات مضادة من جانب اجهزة الاعلام السوفياتية ، بل وصل الامر الى ما هو اكبر من ذلك :

وصل الامر الى حد أن « ليونيد بريجنيف » طالب بابعادي عن الصحافة المصرية وتأثيرها السياسي على الراي العام المصري ، وقد نقل طلب « بريجنيف» الى القاهرة مع الوفد المصري الذي حضر المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي ، والتقى بسكرتيره العام « بريجنيف » قبل عودة هذا الوفد من موسكو الى القاهرة ، بل ان الرئيس « نيكولاى بادجورني » أعاد هذا الطلب على الرئيس انور السادات فى اخر زيارة له للقاهرة ، وكان الرئيس السادات بنفسه هو الذي اخبرني بما طلبه منه « بادجوري » ، بل وفوضني الرئيس السادات أن اناقش هذا الموضوع مع « بوريس باناماريوف » عضو المكتب السياسي السوفياتي ، وكان يزور القاهرة فى صيف سنة ١٩٧١ ، فى اعقاب زيارة « بادجورني » لها !

***

اعود الى النقطة الاصلية فى هذا الحديث ؟

ــ هل صحيح أن جمال عبد الناصر فتح ابواب الشرق الاوسط أمام الاتحاد السوفياتي ، وادخله الى المنطقة قوة تؤثر فى مقدراتها ؟

ونحاول الاجابة على هذا السؤال ، واسئلة أخرى تتفرع منه ...

والاجابة على السؤال نفسه لا تحتاج الى جهد كبير ، ويمكن تلخيصها فيما يلي :

١ ــ لقد كان الغرب هو الذي ادخل الاتحاد السوفياتي الى المنطقة اول مرة فى هذا القرن ، وليس جمال عبد الناصر .

حدث ذلك حين اتفقت بريطانيا مع الاتحاد السوفياتي على اقتسام احتلال ايران سنة ١٩٤١ ــ اعترافا من بريطانيا بأن الاتحاد السوفياتي ، حليف المعركة الكبرى ضد هتلر ، له مصلحة أمن لا يمكن اغفالها فى منطقة الشرق الاوسط ، وفى اتجاه الخليج العربي والمحيط الهندي بشكل خاص .

ثم حدث ذلك حين جلس روزفلت مع ستالين فى « مؤتمر يالتا » سنة ١٩٤٥ يقتسمان العالم ومناطق النفوذ فيه ، كان الكرة الارضية امامهما كمكة تحولها سكين الكبار الى شرائح لكل منهم فيها نصيب يأخذه ويقر له الاخر به .

٢ ــ في مطلق الاحوال، فان الاتحادالسوفياتي بعد الحربالعالمية الكبرى الثانية لم يكن في حاجة الى تشرشل أو الى روزفلت ليعطيهدورا عالميا. فقد كان دوره موجودا على نحو أو اخر فى كل القارات وعلى كل المحيطات . ان الاتحاد السوفياتي خرج من الحرب العالمية الثانية وهو واحدة من القوتين الاعظم ، وكانت التطورات سنة بعد سنة منذ تلك الحرب تؤكد هذه الحقيقة وتجعل من الاثنين ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي والتعاون بينهما والتنافس بينهما ، اساسا للنظام الدولي المعاصر .

واذن ، فان الاتحاد السوفياتي ، الذي لم يكن فى حاجة الى « تشرشل » و « روزفلت » ، لم يكن ايضا فى حاجة الى جمال عبد الناصر يفتح له ابواب الشرق الاوسط ويدخله الى المنطقة .

بل لعل الاتحاد السوفياتي كان اقرب الى التواجد فى المنطقة من الولايات المتحدة .

ان الولايات المتحدة كانت موجودة فيها بحكم المصالح وراء البحار البعيدة .

واما الاتحاد السوفياتي فقد كان موجودا فيها بحكم الجوار وراء الحدود القريبة والمباشرة فى بعض الاحيان .

٣ ــ وربما كان دور جمال عبد الناصر ازاء الاتحاد السوفياتي ــ والحال كذلك ــ هو انه كان القائل للاتحاد السوفياتي :

ــ لا تتعاملوا معنا من خلال اوصياء علينا فليس علينا اوصياء ، ولا من خلال اقتسام مناطق النفوذ فلسنا ضمن مناطق النفوذ لاحد .. اذا اردتم ان تتعاملوا معنا فنحن على استعداد كطرف مستقل ومن الباب الامامي » .
وقد كـــان !

***

سؤال فرعي يتداعى بعد الاجابة على السؤال الرئيسي :
ــ مـــاذا استفدنا ؟

والـــــرد :

ــ ما اكثر ما استفدناه ، ويمكن تلخيصه كله في اننا اصبحنا اطرافا في حركـة الصراع العالمي ، ولم نعد ، كما كنا من قبل ، كمية مهملة على حافة هـذا الصراع وحركته العامة الشاملـة :

١ ــ استطعنا أن نخرج من التبعية الكاملة لاحد المعسكرين الدوليين .

٢ ــ دخلنا تفاعلات الحرب الباردة بين المعسكرين ، واستفدنا من موازينها لصالح قضايانا ، وانشأنا مع غيرنا تيارا مستقلا ــ هو تيار عدم الانحياز ــ اثرنا به على قضية السلام والحرب والتنمية فى عالم النصف الثاني من القرن العشرين .

٣ — عندما تحولت تفاعلات الحرب الباردة الى تفاعلات وفاق بين الكتلتين استفدنا من أحكام الوفاق — وكان فى استطاعتنا ان نستفيد اكثر — لكي تكون هناك تسوية عادلة لمشاكلنا ، اذا كان هذا العالم حقيقة يريد السلام ويريد الوفاق مدخلا اليه.

هذا فى مجال الحركة العالمية بشكل عام .

فاذا انتقلنا من التعميم الى التخصيص ، وركزنا انظارنا على الشرق الاوسط ، لوجدنا أن ما حدث فى مجال الحركة العالمية بشكل عام انعكس على المنطقة عمليا كما يلي :

١ — ان جمال عبد الناصر استعان بدور السوفيات فى مواجهة الولايات المتحدة — على مهمة تصفية الاستعمار التقليدي فى المنطقة ، استعان به سياسيا واستعان به عسكريا ، ولو بغير السلاح .

استعان به سياسيا فى مواجهته العظيمة مع الاستعمار فى حرب السويس منذ التأميم فى يوليو ١٩٥٦ الى بداية الغزو البريطاني الفرنسي الاسرائيلي فى اخر اكتوبر من نفس السنة .

وحين بدأ الغزو ، وقاوم جمال عبدالناصر وحده حتى تحركت الموازين الدولية ، كان الانذار السوفياتي هو الذي حرك الضغط الامريكي على حلفاء امريكا فى الغرب ، فاضطروا الى التراجع دون ان يستعمل الاتحاد السوفياتي صواريخه .

ومثل هذا حدث تقريبا فى اواخر اكتوبر من سنة ١٩٧٣ .

٢ — أن جمال عبد الناصر استعان بالاتحاد السوفياتي على كسر احتكار السلاح المفروض على المنطقة ، وكان السلاح السوفياتي هو السلاح الوحيد الذي وجده العرب فى أيديهم لمقاومة التوسع الاسرائيلي ، ولمحاولة رد هذا التوسع بالقوة الى مرحلة التقلص والانكماش .

كان السلاح السوفياتي هو السلاح الوحيد الذي وجدناه فى ايدينا سنة ١٩٥٦ ، وهو السلاح الوحيد الذي وجدناه فى أيدينا سنة ١٩٦٧ ، والسلاح الوحيد الذي وجدناه فى أيدينا سنة ١٩٦٩ — حرب الاستنزاف — والسلاح الوحيد الذي وجدناه فى أيدينا سنة ١٩٧٣ .

واذا تساءل متسائل : ماذا فعلنا بهذا السلاح سنة ١٩٦٧ ؟
فان الرد عليه هو : ان الذنب لم يكن ذنب السلاح ، وانما كان ذنب قصورنا فى توجيهه . والدليل على ذلك ان هذا السلاح الذي كان فى ايدينا هو نفسه السلاح الذي كان فى يد الثورة الفيتنامية ، وصنعت به المعجزات امام القوة الامريكية بجلالة قدرها !

٣ — ان السلاح السوفياتي — حتى هذه اللحظة — هو السلاح الوحيد فى جيوش مصر وسوريا والعراق والجزائر واليمن الديمقراطية والسودان والصومال ، ثم هو كل السلاح الذي تمسك به المقاومة الفلسطينية ، واخيرا فهو اليوم جزء هام من سلاح ليبيا والكويت ، وغيرهما من الدول العربية .

٤ — بل ان محاولات الغرب لبيع السلاح الى المنطقة — وبينها مصر الان — تنبع اساساً من منطق « تقليل اعتماد مشتريه على الاتحاد السوفياتي » ، وهكذا فانه حتى حصولنا على سلاح من الغرب لم يكن ليحدث لولا علم الغرب انه اذا لم يبع سلاحه للعرب فان العرب لن يعوزهم الحصول على السلاح من غيره — من الاتحاد السوفياتــي .

٥ — وهكذا نستطيع القول ان دخول السلاح السوفياتي الى المنطقة غــير الموازين فى الصراع العربي — الاسرائيلي .

وفوق ذلك فلقد اعطى لهذه المنطقة الغنية ، والفادحة الغنى ، قوة مسلحــة تذود بها عن كنوزها ، فليس هناك ما هو اكثر غواية للمطامــــع من كنز مباح لا يدافــع عنــه سلاح !

٦ — ولم تكن المساندة السوفياتية فى مواجهة الازمات وحدها ، سواء بامدادات السلاح او بالمواقف السياسية ، وانما تحمل الارض العربية على ظهرها شواهد لا يمكن انكارها من رموز التعاون العربي السوفياتي : سد اسوان العالي — سد الفرات — مجمعات الحديد والصلب — ترسانات بناء السفن — مصانع بالمئــات وبالالاف — مفاعلات ذرية — محطات كهرباء ، الى اخره .

٧ — ولم تكن دعائم القوة المسلحة ، ولا كانت دعائم القوة الاقتصادية ، التي حصلنا عليها من الاتحاد السوفياتي ، بثمن باهظ يثقل علينا عبئه .

كان السلاح ، وما يزال ، يباع لنا بسعر معقول ، وكنا ، وما زلنا ، نحصــل عليه بخصم على هذا السعر نسبته ٢٥ فى المائة ، وكانت الاقساط ، وما زالت ، على سنوات طويلة ، بين اثنتي عشرة سنة وعشرين سنة ، وكانت الفوائد لا تزيد علــى ٢ ١/٢ فى المائــــة .

وبصفة عامة ، وهذا تقدير الخبراء ، فان نسبة ثمن سلاح سوفياتي الى مثيل غربي له بنسبة ١ للسلاح السوفياتي و ٢ للسلاح الغربي ، فاذا اضيفت فوارق الفائدة (٢ ١/٢ فى المائة فى السلاح السوفياتي وما بين ١٥ و ١٨ فى المائة للسلاح الغربي) لاصبحت هذه الفوارق فادحــة .

ونفس الوضع تقريبا فى اتفاقيات السلاح ينطبق على اتفاقيات انشاء السدود وبناء المصانــع وغيرها .

وسؤال فرعي اخــر :

— هل قدم الاتحاد السوفياتي هذا كله من اجل عيــــون جمال عبد الناصر وارضاء لخاطــره ؟

والــــرد :

— ان الامر كان اكبر من ذلك جدا ، ولو حاولنا ان نعرفه لوجدنا ما يلي :

١ — ان الاتحاد السوفياتي بدأ علاقاته مع جمال عبد الناصر بالشك فيه على اساس التحليل الماركسي التقليدي لدور الجيوش فى المجتمعات ، والجيوش فى المجتمعات

قبل ثورة عبدالناصر كانت اداة لحفظ الامر الواقع وحمايته وليست اداة لتغييره وتطويره، وهكذا كان حكم الاتحاد السوفياتي ابتداء يقضي بأنه : ديكتاتور فاشيستي لا اكثر ولا اقـــل ..

ثم فوجيء الاتحاد السوفياتي بظاهرة جمال عبد الناصر التاريخية : زعامـــة وطنية ، قادرة على ان تمثل وتبرز قومية مستقلة وتقدمية ، وسجلها في معـــاداة الاستعمار واتجاهها الى التنمية الشاملة واضح ، ثم ان هذا كله في منطقة حيويـــــة بالغة الاهمية كالشرق الاوسط ، خصوصا بموقعه القريب وراء ظهر الاتحاد السوفياتي.

٢ ـ أن الاتحاد السوفياتي وجد جمال عبد الناصر يتعدى الحاجز الوطني لمصر ، ويتخطى النطاق القومي لامته العربية ثم يذهب بعيداً وعميقا ـ بعد السويس بالذات ـ لكي يطلق صيحة الحرية « اوهورو » في افريقيا كلها ، فاذا نكروما في غانا ، وسيكورتوري في غينيا ، وموديبو كيتا في مالي ، وجومو كينياتا في كينيا ، ونيريري في تانزانيا ، يبرزون على الساحة الافريقية المظلمة في وسط هالة التحرر المضيئة التي تشع مـــن حـــول جمـــال عبد الناصر .

ويعبر استاذ افريقي رصين كالاستاذ « مزروي » عن الحقيقة في عدد اخير من مجلة الشؤون الخارجية قائلا :

ـ اذا كان يقال ان العرب شاركوا في استعباد افريقيا بتجارة الرقيق في قرون مضت ، فان العرب قد كفروا عن الخطيئة في هذا القرن ، حين جاؤوا وراء جمـــال عبد الناصر لتحرير افريقيا » .

ثم تصل ابعاد الطاقة التحررية العظمى التي فجرها جمال عبد الناصر الـــى أمريكااللاتينية، ويسمع السوفيات من رجل مثل فيدلكاسترو يقول لهم ـ كما قال لنا :
ـ لقد كان جمال عبد الناصر الهاما ثورتنا .. اذا كان في استطاعته ان يتصدى لبريطانيا وفرنسا واسرائيل في قناة السويس .. أفلا يكون في استطاعتنا نحن ان نتصدى لحكم الديكتاتور باتيستا وأن نعلن الثورة المسلحة وننتصر ؟ » .

٣ ـ وليكن أن الاتحاد السوفياتي وجد أن التيار التحرري الذي قاده جمال عبد الناصر يتلاقى مـــع أهدافـــه .

فالاستعمار الذي يتصدى له عبد الناصر هو نفسه القوة الاعظم الثانيـــة التـــي يتنافس معها الاتحاد السوفياتي .

ماذا في ذلـــك .

واليس حقا أن السياسة الدولية هي حركة بالاتفاق والاختلاف متغيرة لحمايـــة مصالح دائمة لشعب أو لامة او لكتلة من الشعوب والامم ..

لقد تلاقت مصالحنا مع مصالح الاتحاد السوفياتي .

واستفادت الامة العربية ، واستفاد الاتحاد السوفياتي بطبيعة الحال .

واليس هذا هو منطق التعامل الدولي ذاته ؟ او انتا نتصور ان ناخذ ولا ياخـــذ غـــيرنـــا ؟!

سؤال يتداعى من هنـــا :

ـــ ... ولكن ماذا اعطى ... هذه هي المسالة ؟

ويندفع بعضهم ـــ افتراء علم الله وتجنيا ـــ ليقول :

ـــ لقد أعطى استقلال مصر بهذا التواجد العسكري السوفياتي الذي تركـــه في مصر عندما رحل في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ؟

واستأذن في وصف هذا السؤال بالكلمة المشهورة عن الرئيس السادات وهـــي كلمـــة : عيـــب !

ثم أشرح الاسباب :

١ ـــ أن جمال عبد الناصر تعامل مع الاتحاد السوفياتي من موقف الند للند ، فقد كان يعرف أنه أمامهم يمثل أمة عربية بأسرها ، لها ارادتها المستقلة ، ولها مصالحهـــا القوميـــة في منطقة من اهم مناطق الدنيا ، واقر الاتحاد السوفياتي بهذه الحقيقـــة ، واقرار زعمائه به سجل في كل خطاب القوة امامه ... بل أن عبد الناصر كان أمامهـــم اكبر من مجرد زعيم عربي ، فقد كان رمزا عالميا للثورة الوطنية ، ولعدم الانحياز ، ولاماني العالم الثالث كله وتطلعاته ونضاله .

٢ ـــ حينما اخطأ الاتحاد السوفياتي ، بعد ثورة العراق في سنة ١٩٥٨ ، في فهم الحقيقة القومية ، كان جمال عبد الناصر هو الذي تصدى لمعركة مع الاتحاد السوفياتي لم يسبق لها مثيل في العالم الثالث كله ، ولا لحقها مثيل بعد ذلك .

وفي بداية سنة ١٩٥٩ كانت المعركة بين جمال عبد الناصر و « نيكيتا خروشوف » على اشدها ، ووقف « خروشوف » في المؤتمر الواحد والعشرين للحـــزب الشـــيوعي السوفياتي يهاجم عبد الناصر ، ورد عبد الناصر من شرفة قصر الضيافة في دمشق .

ولم يكن جمال عبد الناصر يريد ان يهزم الاتحاد السوفياتي او يخرجه من الشرق الاوسط ، ولكنه كان يريد ان يفرض عليه الحقيقة القومية فرضا .

واستطاع عبد الناصر محاصرة الاتحاد السوفياتي في الموصل في شمال العراق ، ولم يترك له حليفا او صديقا في المنطقة غير الحزب الشيوعي العراقي ـــ كما كان وقتها ـــ واضطر الاتحاد السوفياتي ان يرى الحقيقة ويسلم بها ، وهي ان الامة كلهـــا وراء الرجل الذي استطاع التعبير عن حقيقتها القومية ، وبدأ يتراجع .

وكانت ذروة التراجع مجيء « نيكيتا خروشوف » بنفسه الى مصر سنة ١٩٦٤ ليحضر احتفال اتمام المرحلة الاولى من بناء السد العالي ، وليقدم لجمال عبد الناصر في اسوان وسام « بطل الاتحاد السوفياتي » !

٣ ـــ بعد سنة ١٩٦٧ كانت سياسة جمال عبد الناصر بالغة الدقة ازاء الاتحاد السوفياتـــي .

- **طلب خبراء سوفيات ومزيدا من الخبراء :**

... لاعتقاده بان الجيش المصري يحتاج الى تدريب مركز ومكثف ليتحرك بسرعة عبر مراحل استراتيجية الحرب ، وهي : الصمود والردع والتحرير .

- **ترك جمال عبد الناصر للاتحاد السوفياتي ، بعد صدور قرار مجلس الامن ، ان يتولى اتصالات تنفيذه مع الولايات المتحدة .**

... ولم يكن بهذا يتخلى عن مسؤوليته القومية ، ولكنه كـان يريد أن يعـرف الاتحاد السوفياتي ، وبالخبرة العملية ، انه لا أمل في حل دبلوماسي ، وان الحل لـن يجيء الا عن طريق استخدام القوة .

● **أعطى جمال عبد الناصر تسهيلات للاسطول السـوفياتي في ميناءي بور سـعيد والاسـكندرية :**

... ولم يكن بذلك يعطي قواعد للاتحاد السوفياتي ، وانما أراد تشجيعه على زيادة أسطوله في البحر الابيض لتكون القوة النامية لهذا الاسطول في البحـر الابيض رادعا للاسطول الامريكي الذي كان يعتبر احتياطيا استراتيجيا لاسرائيل .

٤ ــ في الزيارة السرية التي قام بها جمال عبد الناصر لموسكو في بداية سنـة ١٩٧٠ ، وهي الزيارة التي زاد بعدها تواجد السوفيات في مصر بحكم قبولهم لمسؤوليات الدفاع عن العمق ــ كان جمال عبد الناصر يعرف ما يريده ، وقد حصل عليه :

كان جمال عبد الناصر يريد أن يحمي قوات الجبهة ببطاريات الصواريخ المصرية، ولكن تركيزها جميعا الى الجبهة يترك العمق مكشوفا أمام الغارات الاسرائيلية التـي بدات تستبيح سماوات مصر بطائرات الفانتوم ، وكان اشتراك السوفيات في الدفاع عن العمق ــ حتى يتم تدريب أطقم مصرية كافية على الصواريخ الجديدة من طراز «سام٦» حلا وحيدا للمشكلة ، وبغيره لم يكن هناك مفر من بعثرة طاقة مصر الصاروخية بين الدفاع عن الجبهة والدفاع عن العمق ، والتأخر في استيعاب صواريخ «سام٦» المضادة للطيران المنخفـض .

وكان « بريجنيف » يعارض بشدة لان اشتراك السوفيات في هذه العملية يؤثـر على الموازين الدولية ، ويهدد الوفاق .

وكان ذلك مطلبا من مطالب جمال عبد الناصر التي لم يصرح بها لمفاوضيه ، فقد كان يريد تعطيل حركة الوفاق حتى تتحرك ازمة الشرق الاوسط .

وسارت الحوادث في الطريق الذي رسمه جمال عبد الناصر :

● **توقفت غارات العمق عندما احس الاسرائيليون يوم الغـارة على الفيوم ــ ١٨ أبريل ــ بوجود السوفيات .**

● **تحركت الولايات المتحدة وبعثت جوزيف سيسكو الـى القاهـرة لاستطلاع رأي جمال عبد النـاصر .**

● **توترت العلاقات بين القوتين الاعظـم .**

● **تقدمت الولايات المتحدة بمبادرة روجرز التي أشارت لاول مرة الى الانسحاب من الاراضي العربية ، على اساس قرار مجلس الامن .**

● **استطاع جمال عبد الناصر اتمام بناء حائط الصواريخ الذي كان عاملا حاسما في نجاح عبور قناة السويس بعد ذلك في اكتوبر ١٩٧٣ .**

● **امكن اعداد بطاريات مصرية مدربة على صواريخ « سام ــ ٦ » .**

تبقى نقطة هامة ، ربما لا يعرفها كثيرون :

وهذه النقطة هي أن « بريجنيف » رجا جمال عبد الناصر ان يتم سحب الخبـراء السوفيات المسؤولين عن الدفاع عن العمق ـ قبل بدء المعركة ـ لان وجودهم وقتهـا قد يثير تعقيدات لا حدود لها .

وافق جمال عبد النـاصر .

وهكذا فان سحب هؤلاء الخبراء قبل المعركة كان أمرا متفقا عليه في اجتمـاع موسكو في أوائل سنة ١٩٧٠ .

اقول ذلك وقد كنت بنفسي واحدا من شهود هذا الاجتماع ، وكنت رابع اربعة من المصريين حضروا الاجتماع النهائي لهذه المحادثات ، وقد حضرها كـل أعضاء المكتـب السياسي السوفياتي وكل ماريشالات الاتحاد السوفياتي ، وكان المصريون الاربعة هم : جمال عبد الناصر ، والفريق محمد فوزي ، والدكتور مراد غالب ، وانا .

٥ ـ كان جمال عبد الناصر طول الوقت ، وفي تلـك الفترة الحرجة ، شـديد الحساسية لاي تجاوز يمكن ان يمس من قريب أو بعيد ، في الشكل او المضـمون ، باستقلال مصر وحرية ارادتهـا :

● حين جاء الرئيس « نيكولاي بادجورني » لمقابلة عبد الناصر في شهر يونيو ١٩٦٧، والنكسة بعد تنزف جراحها ، أحس جمال عبد الناصر أن « بادجورني » يطلب انشـاء مركز مستقل للاسطول السوفياتي في الاسكندرية ، ووجه جمال عبد الناصر كلامه الى « بادجورني » على الناحية المقابلة له من مائدة المحادثات ، وقال له بهدوء وحزم :

ـ تسهيلات للاسطول السوفياتي ، نعم ... ولكن مركزا مسـتقلا ، لا ... معناها انني اقبل قاعدة سوفياتية في الاسكندرية ، حتى ولو كان هذا المركز مبنى واحدا من حجرة واحـدة ! » .

● وفي مرة اخرى في زيارة يوليو سنة ١٩٧٠ ، دارت مناقشة أمامي بين بريجنيـف وعبـد النـاصر ...

● كان عبد الناصر يطلب خبراء سوفيات ، وكان بريجنيف متردداً ، ثم قال بريجنيف ضمن ما قاله من حجـج :

ـ انني اخشى ان يستغل وجود عدد كبير من الخبراء السوفيات في مصر وان يقول بعضهم ان وجودهم نوع من الضغط او التدخل في شؤون مصر .

وقال جمال عبد الناصر ببساطة :

ـ انني انا الذي اطلبهم بنفسي ... واذا احسست في يوم من الايام ان وجودهم يشكل نوعا من الضـغط ، او احتمالا بتدخل منكم في شؤوننا الداخلية ، فلن اتورع عن ان اطلب الى الفريق فوزي ان يجمعهم كلهم على باخرة واحدة في الاسكندرية ويشحنهم اليك بطريق البحر « اوديسا » .

ولم انس حتى الان تعبير الدهشة المرتسم على وجه بريجنيف .

● ثم مسألة اخرى لا يصح أن تغيب عن بال احد ، تلك هي ان جمال عبـد الناصر رفض باستمرار عقد معاهدة مع الاتحاد السوفياتي .

وكان قوله « لبادجورني » يوما بالحرف :

ــ أنني على استعداد لعقد معاهدة معكم بشرط واحد هو ان تحاربوا معنا جنبا الى جنب ... اذا فعلتم ذلك اوقع معاهدة ، واذا لم تفعلوه ــ ولم تكونوا على استعداد له ــ فما بيننا الان يكفي » .

ولقد كان الرئيس السادات هو الذي عقد معاهدة مع الاتحاد السوفياتي بعد ذلك، وقد عقدها في ظروف صعبة ، فقد كان يشعر أنه مطالب بضمانة الاتحاد السوفياتي بعد حوادث ١٥ مايو ١٩٧١ ، وتلك على أي حال قصة أخرى .

... ...

... ...

استأذن هنا أن أسمح لنفسي بأن أختلف مع الذين يرون أن قرار الرئيس أنــور السادات باخراج الخبراء السوفيات من مصر كان قرارا استعيدت به السيادة المصرية على الارض المصريـــة .

واقرب الاشياء الى الحقيقة أن هذا القرار كان ممارسة لسيادة موجودة ، ولم يكن استردادا لسيادة مفقودة !

لقد كفاه أن يخطر السفير السوفياتي بما يريد يوم ٨ يوليو ١٩٧٢ ، وان يطلــب تنفيذه في ظرف عشرة أيام ، ولم يناقشه السفير السوفياتي ولا ناقشه احد في موسكو .

وانما قام كبير الخبراء السوفيات باخطار وزير الحربية وقتها بان قرار الرئيـــس مستجاب ومطاع ، ثم وعده بتقديم تقرير يومي عن عملية ترحيلهم ، وبدلا من أن تتم في عشرة أيام ، تمت فعلا في ثمانية .

واذن فهي لم تكن معركة سيادة أو معركة استقلال .

كان قرار ممارسة سيادة ، وكان قرار ممارسة استقلال .

ثم لقد أضيف بعد ذلك ان انور السادات ليس بحاجة الى بطولات تختلق او تلفق، فالرجل له من سجله ما يكفيه ويغنيه ، واذا لم يكن له غير قرار العبور لكفاه وأغناه !

ماذا بقي اذن من الدعاوى ضد جمال عبد الناصر في أمر علاقاته بالسوفيات ؟
لم يبق غير الترهـــات ..
كان يقال مثلا :

ــ هم ملحدون ... وسلاحهم ملحد !
ولست أعرف اذا كان الايمان يشع من عيون الاميركيين .. ونور الحق يلمع من ســـلاحهـم ؟!

لكني اعرف شيئا واحــدا :

ــ أن السلاح « الملحد » الذي عبرنا به قناة السويس الى الشرق ... افضـــل الف مرة من السلاح « غير الملحد » الذي عبرت به اسرائيل قناة السويس الى الغرب !

الحديث الثاني عشر

أصل الى نهاية المطاف في هذه السلسلة ، وقد طالت عما قدرت لها ، ولكن القضايا شدت بعضها بعضا ، وتداعت أحاديث من أحاديث !

والخص في الختام لكي يكون القصد واضحا ، والطريق مستقيما :

***

١ — أن جمال عبد الناصر كان تجربة هائلة في حياة هذه الامة العربية ، وفي زماننا المعاصر كله . ومثل كل تجربة هائلة — خصوصا اذا كانت بالثورة — فان التجربة تصبح حافلة ، ذلك انها بالثورة تواجه بدايات جديدة ، ثم انها تعطي للتحديات التي تطرح نفسها عليها اجابات مختلفة ، وهذا مجال الصواب والخطأ .

وقد اصاب جمال عبد الناصر واخطأ ، واعتقادي ان الايجابي في تجربته يرجح السلبي بكثير ، ومحصلة اي حساب أمين تعطيه أكثر مما تأخذ منه بفارق كبير لصالحه، ويكفي لأي واحد منا ان يلقي نظرة على خريطة المنطقة السياسية والاجتماعية والاقتصادية وموازين القوى فيها ، قبل جمال عبد الناصر وبعده ، ليرى الحقيقة ظاهرة وناصعة .

وعندما توزن اخطاء تجربة في مثل حجم تجربة جمال عبد الناصر ، فان هذه التجربة لا يمكن ان تقاس الا باهدافها هي ، والا بظروفها هي ، والا بالتحديات التي واجهتها هي ، والا بالخيارات التي كانت مفتوحة امامها ، والا اصبح التقييم تعسفا ، وانحدر التاريخ الى مستوى المؤامرة !

ثم انه لا يستطيع ان يقضي في مثل هذه التجربة ، و لاحتى بالتقييم ، هؤلاء الذين عادوا التجربة بمبادئها وحركتها وجماهيرها ، فعادتهم هذه التجربة مبدأ وحركة وجماهير .

ان هؤلاء الاعداء لهم حق الكلام بالطبع ، لا يخنقه احد في حناجرهم ، ولكن كلامهم يكون من موقع العداء وليس من موضع القضاء ، ويجب ان يكون هذا واضحا لكي لا تختلط الصور .

ان المستعمرين الفرنسيين — ذوي الاقدام السوداء كما يسمونهم — لا يمكن ان يكونوا هم السلطة التي تقيم الثورة الجزائرية !

وحكومة « فيشي » التي استسلمت للالمان في الحرب العالمية الثانية حاكمت

« الجنرال ديجول » ــ الذي مثل ارادة الشعب الفرنسي في مقاومة النازي ــ وحكمت عليه بالخيانة العظمى ، وطلبت راسه حيا أو ميتا ، ولكن هذا الحكم كان مهزلة على هامش التاريخ ولم يدخل في حسابه !

وبنفس المعيار ، فإن وكالة المخابرات المركزية الامريكية ــ وهي الدافع الحقيقي وراء الحملة الضارية على عبد الناصر اليوم ــ ليست هي القاضي الذي يبحث قضية الديمقراطية في عصر عبد الناصر . هؤلاء الملوثة أيديهم بالجريمة الوحشية في شيلي ــ مثلا ــ حيث اغتيل الرئيس الشرعي سلفادور الليندي ، وحيث قتل في الشوارع في يوم واحد ٢٥ ألفا من المواطنين ، وحيث اغتيل في اسبوع واحد مائتا الف من الناس وفق تقرير لجنة العدل الدولية ــ ليسوا قضاة الديمقراطية في تجربة عبد الناصر أو غيره .

نعم ...

تجربة عبد الناصر ليست فوق النقد ، بالعكس فان نقده بالتقييم مطلوب ، لكن جامعة القاهرة مثلا ــ مهما كانت اسباب قصورها ــ لا يمكن ان تحاكم من علب الليل في شارع الهرم !

***

٢ ــ ان الحملة الضارية المعلنة ضد جمال عبد الناصر ــ بالباطل في معظم ما تدعي به ــ لن تضره بشيء .

فهو **كانسان** بعيد عن هذا كله ، في رحاب الله ، لا يمسه من هذه الدنيا سوء .

وهو **كتجربة** ملك جماهير واسعة عاشتها معه وأعطته ما لم تعطه لاحد تبله ، وما لم تعطه بعده لاحد ولم تكن جماهيره عمياء ولا فاقدة لوعيها وهي تسير معه . لقد وجدت في حركته أمانيها الضائعة ووجدت في كلماته تعبيرا عن رغباتها المضغوطة ، ولم تكن العلاقة بين الاثنين علاقة الامر والطاعة ، وانما كانت علاقة حوار حر ، لا مجاله عقول الناس وقلوبهم ، وحيث لا سلطان لقوة على أعماق البشر الا ما تشعر به وتقتنع.

وفي سياق هذا الحوار ، فان هذه الجماهير لم تتحفظ في تاييدها له مرات ، وتحفظت مرات أخرى ، ورضيت عنه أحيانا ، وعاتبته أحيانا اخرى ، وغضبت عليه في بعض المواقف ، وغفرت له في مواقف أخرى .

لقد ايدته بغير تحفظ مثلا في حرب السويس ، ثم تحفظت بعد الانفصال .

ورضيت عنه في ندائه للعدل الاجتماعي ، وعاتبته في تجاوز السلطة .

وغضبت عليه سنة ١٩٦٧ ، وغفرت له في حرب الاستنزاف سنة ١٩٦٩ .

وهكذا ، وهكذا ، علاقة حوار حر في مسار تجربة تملكها جماهيرها .

ثم ان جمال عبد الناصر كتاريخ ملك أجيال قادمة تتاح لها الحقائق كلها ، وتخلو نظرتها الى الوقائع من انفعالات لحقت بعينها ، سواء سادها الفرح أو سادها الحزن .
وكانت تلك على سبيل المثال — ومع اختلاف الظروف قصة نابليون مع فرنسا .
لقد مات نابليون والهزيمة من حوله ، ومات في المنفى تحت ذل أعدائه .

ومضت سـنوات وسـنوات .

وعادت اليه فرنسا تضعه في رأس القائمة من زعماؤها الخالدين .
وأتذكر اديب فرنسا الكبير « اندريه مالرو » وهو يعقد هذه المقارنة بين «نابليون» و « عبد الناصر » ونحن معا ذات يوم على مائدة غداء في مطعم « لاسير » بباريس ، وقال لي « مالرو » :
— ليست المسألة هي النصر العسكري او الهزيمة العسكرية .. المسألة هـي ارادة الامة وتقديرها للبطل حين تجد نفسها فيه ... ولقد وجدت امتكم نفسها في عبد الناصر بمقدار ما وجدت امتنا نفسها في نابليون مع اختلاف الظروف ، وهذا هو الذي يبقى ، وغيره تكنسه الايام » .

هكذا فان الانسان في عبد الناصر مع ربه .

والتجربـة لجماهيرهـا .

والتاريخ مسؤولية اجيال قادمـة .

واذن فالحملة الضارية بعيدة عن أي تاثير حقيقي عليه ، انسانا أو تجربة او تاريخـا .

٣ — ان هذه الحملة اذا اثرت فتأثيرها على النظام نفسه بعد عبد الناصر .
ان الثورة لم تكن ثورتين ، والنظام لم يكن نظامين ، وهذا تعبير الرئيس أنـور السادات نفسـه .

والتاثير على النظام هنا يكون مزدوجا :

- **قسم منه في نظرة النظام الى نفسه .**
- **وقسم منه في نظرة اخرين اليه : بالذات جماهيره في الداخل والخارج .**

واذا تذكرنا أن الحملة الضارية الدائرة الان هي حملة ادانة شاملة وليست عملية نقد موضوعي — اذن فان التاثير المزدوج يمكن ان يحدث على النحو التالي :

- **ان النظام اذا اثرت فيه الادانة الشاملة يجد نفسه في الموقف الصعب ، موقـف الخجل ازاء ماضـيه .**

وهو هنا لا يصحح ولا يقوم ، ولكنه يغير ويقلب راسا على عقب .
يبحـث عن مبادىء غير المبادىء ، ومواقف غير المواقف .
وهو بهذا يفقد الثقة بنفسه ... ويظل يفقد ويفقد حتى يضيع منه احساسـه بشرعيته ذاتهـا .

● **وإذا أثرت الادانة الشاملة في نظرة الاخرين الى النظام ـ وبالذات جماهيره في الخارج وفي الداخل ـ فماذا تفيده الثقة بالنفس ، على فرض أنها بقيت لديه ، ببقاؤه في هذه الحالة مجرد مقدرة على التسلط ، وهذه مرهونة بوقت ، لانه ليست هناك قوة تستطيع الاحتفاظ الى فترة طويلة بفرع الشجرة اذا انفصلت عن جذورها .**

والغريب أن بعضهم يحاول أن يحصر الادانة الشاملة في عصر جمال عبد الناصر، ويبرىء منها أنور السادات ، وذلك ظلم لانور السادات نفسه قبل ظلمه لجمال عبد الناصر ، لانه يسلبه بعضا من أروع منجزات ثورة ٢٣ يوليو التي هو اليوم وريثها الشرعي ورمزها الحي .

***

٤ ـ ان الادانة الشاملة على هذا النحو المجنون بالحقد تأخذ ايضا من مصر رصيدها كله لدى أمتها العربية .

فهذه الامة أمامها خياران لا ثالث لهما :

● **أما ان تصدق ما يقال في مصر الان ، واذن فان حكمها سوف يكون شديد القسوة على مصر من سنة ١٩٥٢ الى سنة ١٩٧٠ .**

● **وأما أن ترفض تصديق ما يقال في مصر الان ، واذن فان حكمها سوف يكون شديد القسوة على مصر من سنة ١٩٧٠ الى سنة ١٩٧٦ .**

والمؤكد ان التيار الغالب في الامة العربية ـ بحس صادق وضمير مستنير ـ رفض تصديق ما يقال في مصر الان ، ومع ذلك فانه في نفس الوقت ـ محبة في مصر واعتزازا ـ رفض ان يكون حكمه الراهن عليها شديد القسوة . .

واكتفت الامة حتى الان بنظرة التساؤل والدهشة والعتاب توجهها نحو ما يجري في مصر ، تكاد لا تصدق حدوثه .

لم يبق زعيم عربي له قيمة الا وتساءل واندهش وعاتب .

ولم تبق مؤسسة عربية لها قيمة الا وتساءلت واندهشت وعاتبت .

ولم يبق شعب من شعوب الامة العربية الا هو الان يضرب كفا بكف .

ولقد سمعت وفود كثيرة رسمية وغير رسمية ، عالية المستوى وعادية المستوى، تعبيرات قاطعة في دلالتها على ما تشعر به الامة العربية .

● سمعتها من هواري بومدين في الجزائر ، يقول لي :

ـ ما الذي تفعلونه بجمال عبد الناصر في مصر الان ... وأي شيء بقي يحفز أي انسان عربي ليعطي عمره لامته ... لقد اختلفنا واتفقنا معه كثيرا ، ولكننا لا نختلف ولا يختلف معنا أحد من أنه كان ابرز عربي ظهر على الساحة هذا العصر .

واذا كانوا يفعلون به ما نراه اليوم ... فماذا يفعلون بغيره ممن لم يعطوا عطاءه، ولم يكن لهم مثل دوره ، وأن حاولوا بكل ما في وسعهم ان يجاهدوا ويناضلوا ؟»

● قالها عبد الرحمن العتيقي وزير المالية الكويتي لوفد مصري كان في الكويت اخيرا :

ـ ان آرائي كانت بعيدة عن آراء جمال عبد الناصر .

ولكن دعنا نكون صرحاء ... انني سمعت من بعضكم كلاما عن التجربة الديمقراطية في الكويت ... واقول لك بصراحة ان هذه التجربة ما كانت لتحدث لولا تأثير جمال عبد الناصر ، فاتقوا الله فيه وفينا » .

● بل قالها في أحد القصور واحد من حملة السيوف لزائر مصري كان يرافق الرئيس السادات في رحلة عربية أخيرة له :

ـــ في بعض هذه المناطق هنا ظل العبيد يباعون ويشترون في الاسواق .
ولقد حصلنا على العتق والحرية عندما بدأ صوت جمال عبد الناصر ينفذ من أسوار القصور ! »

واستطرد حامل السيف يقول :

ـــ اخاف على انور السادات منهم ... أي ضمان أن لا يفعلوا به يوما ما يفعلونه بجمال عبد الناصر اليوم ! ؟

ثم الفت النظر الى واقعتين حدثتا اخيرا في نطاق جامعة الدول العربية .

تقدمت مصر بمرشح لرئاسة منظمة اليونسكو العربية ، منظمة الثقافة والفنون ، واسهام مصر في ميادينها مشهور ، وكان مرشح مصر لرئاسة هذه المنظمة رجلا من اكفأ رجالها واقدرهم على الخدمة العامة ، وهو الدكتور محمد حسن الزيات .
وجرت الانتخابات .

ونال الدكتور الزيات صوتا واحدا ، هو صوت مصر ، وكانت بقيةأصوات الدول العربية كلها لمرشح آخر .

وتكرر نفس المشهد في منظمة التنمية الصناعية العربية ، وكان المرشح لها وزيرا مصريا سابقا للصناعة ، وكان ما حصل عليه ـــ هو الاخر وللمرة الثانية ـــ صوتا واحدا هو صوت مصر .

كيف حدث أن أعرض الكل عن المرشح المصري في الحالتين ؟
كيف حدث أن مصر لم تتنبه الى الوضع ، ولم تسحب مرشحها في الحالتين من باب الحرص ، أو حتى من باب المداراة ؟

واخشى ان التصويت في الحالتين لم يكن من قلة الثقة بكفاءة رجلين قدمتهما مصر ... بقدر ما كان نوعا من العتاب بصفة عامة على مصر نفسها ، ولا أزعم أن السبب هو حملة الادانة الشاملة على جمال عبد الناصر ولكني أتصور ان هذه الحملة ـــ الى جانب عوامل اخرى ـــ خلقت مناخا معينا من حول مصر ، لا اظنه يتناسب مع قيمتها الحقيقية .

***

٥ ـــ وليس رصيد مصر العربي هو ما يجري تبديده الان ، وانما وهو رصيد مصر العالمي .

واسأل على سبيل المثال :

ـ هل حاول احد ان يتقصى اثر حملة الادانة الشاملة ضد جمال عبد الناصر على افريقيا ؟

كل حركات التحرير في القارة ، وبغير استثناء ، لم تعرف غيره زعيما لحركة التحرر الشاملة ضد الاستعمار . حتى المستعمرات البرتغالية التي حصلت على استقلالها اخيرا : موزمبيق وانجولا ، بدأت نضالها هنا في القاهرة وتحت حمايته .

وفي غير افريقيا ؟

في امريكا اللاتينية مثلا ؟

يلفت النظر حتى الان ان الانظمة التي تساندها الولايات المتحدة لا تخشى شيئا مثلما تخشى حركات في جيوشها يطلقون عليها اسم « الناصريون » !

ثم آسيا ؟

هل تصدق الهند ما يقال الان عن جمال عبد الناصر في مصر ؟

هل تصدق الصين ؟

واوروبا ؟ :

اوروبا في الشرق كلها ترفضه من موسكو الى بلجراد ، وبغير استثناء .

واروبا في الغرب كلها تتابع ما يقال مجرد متابعة اخبارية .

حتى امريكا ؟

وكانت مجلة « تايم » الامريكية هي التي نشرت اخيرا تحقيقا صحفيا مليئا بعلامات الاستفهام ، تتعجب كلها كيف ان جمال عبد الناصر ارفع ما يكون مكانة في العالم العربي كله خارج مصر . . . واما في مصر فان سمعته يجري تمريغها في التراب ؟!

***

٦ ـ وبعيدا عن هذا كله ، فان حملة الادانة الشاملة بالطريقة التي تجري بها الان ، يمكن ان تثير اسئلة فرعية في مصر ، وهي اسئلة فرعية اليوم ولكنها في الغد يمكن ان تجيء بمضاعفات ليست فرعية .

سوف تبرز تساؤلات عديدة :

● **هل هي محاولة لتكبيل ارادة الشعب المصري في « عقدة ذنب » ، يوقعون في روعه ان ما يصورون له حدوثه بالامس جرى باسم الحرية والاشتراكية والوحدة .**

واذن تصرف جماهير الشعب نظرها عن هذه الاهداف .

فاذا كان هذا هو الثمن الذي دفع فيها كما يصورونه ـ اذن فانه ثمن فادح انسانيا ، يستحيل دفعه لاي هدف مهما كان .

واذن على الجماهير ان تسلم ارادتها ، وعليها الان تقبل استغلالها ، وعليها ان تتكفىء وراء اسوار العزلة عن امتها ؟

هل هذا هو المقصود أو المطلوب ؟
وهل هو ممكن ؟ سياسيا او اخلاقيا ؟

● **ماذا لو فرغ صبر الناس وكان سؤالهم :**

لقد اكتفينا من حكايات الماضي ، ونحن نريد ان نسال عن الحاضر والمستقبل ؟
ثم الى متى يصبح كل ما هو سلبي موروثا مما قبل ١٥ مايو ١٩٧١ ، وكل ما هو ايجابي من معجزات ما تحقق بعد ١٥ مايو ؟

ان كل حكم يصبح مسؤولا عن نفسه بعد فترة سماح معينة يستطيع فيها ان يتعلل بما ورث عن سابقه ، وفترة السماح هذه عادة لا تطول عن سنة او سنتين .
اليست مدة التخطيط في العالم كله خمس سنوات في العادة ، تسال فيها اي خطة عما حققته او لم تحققه حسابا مستقلا ؟

اليست مدد الرؤساء تتراوح ما بين أربع سنوات ، كما هي الحال في أمريكا ، الى ست سنوات ، كما هي الحال في فرنسا ، ثم يفترض بعد هذه المدة أن كل رئيس اخذ من الوقت ما يكفيه لكي يصنع ملامح عصره ويصبح مسؤولا عنها ؟

● **ما هو الخيار المفتوح امام المؤمنين استراتيجيا في ثورة ٢٣ يوليو ، وفي جمال عبد الناصر ، حتى وان كانت لهم تحفظاتهم التكتيكية ؟**

هل يتحول هؤلاء الى حركة تحت الارض ، ليس لها تنظيم يعبر عنها ، وليس لها منابر مفتوحة تنطق باسمها ؟

وهل تصبح الناصرية حركة رفض لنظام يقوم على ثورة عبد الناصر وتجربته ؟
من يقول بذلك ؟ ومن يرضاه ؟

***

٧ ــ ومع ذلك لنفتح الدفاتر .
ولنفتحها بأمانة وشرف ، ولنحقق في كل خط وزاوية ، وليكن التحقيق عربيا شاملا يتجاوز حدود مصر ، فتجربة جمال عبد الناصر كانت تجربة عربية شاملة تجاوزت حدود مصر :

● **لنحقق في الرجل نفسه ونزاهته ، وكل تصرف شخصي من تصرفاته ، وهل كان عفا في كل ما اتى ، أو أنه مال وانحرف ؟**

● **لنحقق في دعوته ، وهل كانت تعبيرا أصيلا عن ضمير الامة ، أو انها كانت فرضا فرض عليها بقهر السلطة ، ولنسال أنفسنا اي سلطة قهر كانت له جماهير الامة العربية خارج حدود مصر ، وكانت هذه الجماهير البعيدة عن نطاق سلطته هي الاحتياطي الاستراتيجي لحركته .**

● **لنحقق في سياسته الخارجية ، وهل استطاعت هذه السياسة ان تجعل من العرب قوة سياسية ضخمة تتصدر التيارات الفاعلة في عصرها ، كحركة الثورة الوطنية في العالم ، وحركة معاداة الاستعمار ، وحركة التضامن الاسيوي الافريقي ، ومنطق**

الاستقلال وعد مالانحياز ، والاتجاه العام الى مجتمع دولي يسوده السلام وتحكمه مبادىء القانون الدولي أو أن الرجل كان ضد التحرر وكان محالفا للاستعمار داعية الى الطغيان في مجتمع الدول ؟

● لنحقق في سياسته العربية ، وهل كانت مع التاريخ أو كانت ضد التاريخ ، وهل بادر أحدا بعداء أو أنه اضطر الى معاداة من عادوه لانهم وقفوا ضد التاريخ وحاولوا تعطيل مسيرة الامة ؟

● لنحقق في سياسته الداخلية :

في صيغة تحالف قوى الشعب العامل كبديل لدموية الصراع الطبقي ، وفي الاستجابة لتحديات مرحلة الانتقال من مجتمع متخلف اقتصاديا واجتماعيا ، وفي الاجراءات التي اضطر الى اتخاذها لتكون للمجتمع المصري بداية سليمة على طريق الانتقال .

وليكن التحقيق شاملا في تجربة التصنيع في مصر ، وفي تجربة تطوير الزراعة ، وفي تجربة بناء قطاع عام يقود عملية التنمية ، وفي تجربة التخطيط لذلك كله ، وهل بلغت نسبة التنمية الشاملة في معظم سنوات عصره ٦ر٦٪ سنويا ، واي تجربة أخرى في العالم الثالث غير تجربته بلغت هذا الحد من النجاح ، رغم ما نعرف جميعا من ضغوط الحوادث والظروف .

ليكن التحقيق شاملا كذلك لسياسات التأميم ، ولاجراءات الحراسة ، حالة حالة، ولتنشر القوائم ومعها الاسباب .

وليكن التحقيق شاملا ايضا في كل ما يقال عن عمليات الاعتقال ، والفصل ، والتعذيب ، ودور المخابرات والمباحث وهل كانت مصر تحت حكمه صورة جديدة من اليوم « العاصفة النازية » ، او أن هذه التجربة لم تعتمد العنف الا في اقل القليل وفي سبيل أكبر الكبير من المبادىء والاهداف ، مع التسليم سلفا باحتمال وجود تجاوز لا بد من الحساب عنه والعقاب .

ازعم ان اي تحقيق منصف سوف يضع عبد الناصر حيث يجب أن يكون ، وحيث وضعته جماهير الامة العربية التي لم تكتف بالاعراض عما يجري له في مصر الان — بل عزلت فلول الظلام التي حاولت أن تحاصر قبره وتنبشه ، كما فعل في تاريخ مصر القديم لصوص المقابر حتى في أهرامات مصر الشامخة .

ان ما حدث في مصر لعبد الناصر لم يحدث لزعيم وقائد في اي بلد من بلدان العالم — الا اذا كان هناك انقلاب مسلح على نظامه .

ومثل هذا الانقلاب لم يحدث قطعا .

وعلى فرض ان انقلابا مسلحا كان قد حدث — فاني أشك في ان حملة اليوم على الامس كان يمكن ان تصل الى هذا العنف .

ولم يكن من قبيل الاخطاء السياسية ما حدث ، ولكنه كان أسوأ ، فقد تعدى اخطاء السياسة الى السقوط الاخلاقي ... الى نوع من الانتحار المعنوي .

وليست هذه هي مصر ، ولا يمكن ان تكون هذه هي مصر ... وهي بالفعل ليست مصر !

***

٨ — ثم أقول في الختام :

— لقد كانت تجربة جمال عبد الناصر ، بايجابياتها وسلبياتها ، تجربة مصرية عربية انسانية اصيلة .

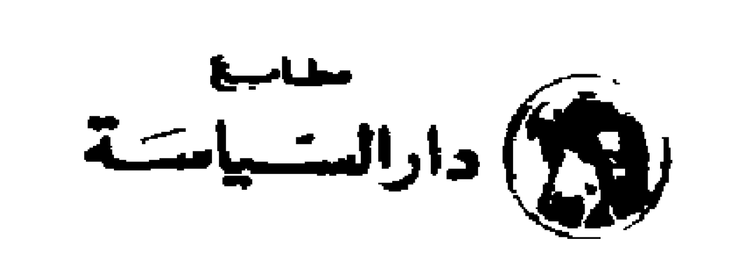
ومناقشتها حق ، لكن ادانتها الشاملة على هذا النحو الذي يجري في مصر ، وبالوسائل والاساليب التي يتم بها ذلك مصر ، باطل لا يصح .

ويبقى اعتقادى انه لا يصح غير الصحيح .

ثم أتوقف عند عبارة بدأت بها هذه السلسلة من الاحاديث وتلك هي انني لا أعطي لاحد حق اتهامه ، ولا أعطي لاحد شرف تبرئته .

تلك كلها حقوق للجماهير ... وللامة ... وللتاريخ .

محمد حسنين هيكل


مطابع
دار السياسة

هذا الكتاب

ليست هذه الاحاديث محاولة للدفاع عن جمال عبد الناصر وشخصيته وعصره ، ولكنها رواية مختصرة لمشاهد رأيتها بعيني . ولقد اخترت وقائع تتصل ببعض ما يثار اليوم في الحملة ضد جمال عبد الناصر ، ولم يكن هدفي أن أرد أو أدافع او اسجل للتاريخ ، فذلك كله لم يجيء أوانه بعد . وانما كان هدفي ان يعرف الشعب في مصر ، وتعرف شعوب الامة العربية ، أن الحقيقة ليست ما يدعي به اليوم فيما ينشر ويقال في القاهـرة .

وأعرف مقدما أن هذه الاحاديث لن تصل الى القارىء المصري ، وذلك يحزنني ، ولكنه أمر لا حيلة لي ازاءه ، وان لم يكن فيه مـا يدعوني الـى قبول دور الشيطان الاخرس الساكت عن الحق .

وأعرف مقدما أيضا أن هذه الاحاديث سوف تثير على ما أنا في غنى عنه ، وسوف أهاجم بسببها دون فرصة لحق الدفاع عن النفس ، وسوف ينسب الي ما لم أقله ، وأتهم بما لم أقترفه ، ومع ذلك فاني أقبل راضيا وسعيدا، عارفا أن كل واحد منا يملك اختيار مواقفه ولكن من منا يملك اختيار مقاديره !؟

القاهرة ــ فبراير ١٩٧٦

محمد حسنين هيكل

